القيم في الشعر الجاهلي ضابطاً اجتماعياً
قيمة الكرم أنموذجاً

د.توفيق ابراهيم صالح
استاذ
جامعة كركوك / كلية التربية

الخلاصة :

حاول البحث على مدى صفحاته أنْ يدرس دور قيمة الكرم من منظور اجتماعيّ في اطار ومحيط مجتمع القبيلة في ضوء تشابك العلاقات الإنسانية وتعقيدها لا بوصفها قيمة مجردة بل بوصفها قيمة فاعلة التأثير على قيم الحياة الأخرى ، وموجهة لسلوك الفرد .

وقد أوضحت نتائج الدراسة أنّ قيمة الكرم مارست دور الضابط الإجتماعي الذي حقق من خلاله الكريم أهدافاً تعلق بعضها بموقفه الإجتماعي والسياسي فضلاً عن جانبها الإنساني الذي كان يؤمن به ، فهو من خلال قيمة الكرم حقق ذاته ووجوده بوصفه فرداً متميّزاً عن غيره في قدرته على التفاعل مع الآخر في افادته مادياً ، والإتصال به روحياً ، وهذا ما جعل الآخر يمنحه ثقته ، ويوليه زمام قيادته ، ويسوّده عليه ، وعلى من يعجز عن فعل ما فعله .

وقد ترجم الجاهليّ قيمة الكرم سلوكياً من خلال بذل المال ، واصراره على الإستمرار بهذا البذل امتثالاً منه لضوابط المجتمع وقيمه ، ومروءة منه تجاه الآخر ، حتى غدا الكرم عادة يمارسها ، ويواظب عليها ، وأصبح جزءاً من منظومته القيمية على الرغم من عدم امكانية الفصل بين طبيعة الإنسان وخيمه وبين ممارسة هذه القيمة ، فحيثما كان طبع الكرم موجوداً فإنّ القيمة تهذب النفس ، وتشذب السلوك ، وترسخ ما جبل عليه الإنسان فلا يعدل عنه .

وقد رغب الجاهلي مقابل كرمه في أنْ ينال رضا الناس والمجتمع ، وقد تمثل هذا الرضا بالحمد والشكر الذي وجد فيه نوعاً من التميّز الإجتماعي على الآخرين ، وقد حقق ما أراد الكرماء من كرمهم ، مما ولّد نوعاً من الإستقرار الإجتماعي في مجتمعاتهم القبلية .

مدخل :

إنَّ قسوة الطبيعة وصعوبة الحياة والفقر في المجتمع الجاهلي مع فقدان العدالة الإلهية ، مكّنتْ الطبقة الأرستقراطية من التحكم فيه ، ولكنَّ هذه الطبقة على الرغم من أرستقراطيتها كانت تؤمن بقيمة الكرم التي ترى فيها وجهاً من وجوه العدالة في الأرض ، وعليها الرضوخ لها والعمل على تطبيقها وإشاعتها في المجتمع ؛ لتصبح بعدئذ ضابطاً إجتماعياً يلزمها بالعطاء والبذل .

إذن الطبيعة بنظمها هي مَنْ تتحكّم بالفرد في ضوء آلياتها التي ترسم معالم الحياة في أطرها الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ، ومن ثمّ تقرر مصيره في الحياة .

إنَّ إدراك هذه الحقيقة فرض على الجاهلي أنْ يتعامل مع نظم المجتمع ومعطياته الحياتية بوعيٍّ تام ، وحساسيةٍ مفرطةٍ ؛ كي يحقق ذاته ضمن محيطه القبلي ، بما يلبي طموحاتهُ المختلفة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، ومن أجل تحقيق هذه الطموحات راح يصارع الآخر بغية بزِّه سِمَة التفوق أو السبق في مجال القيم .

إنَّ الرؤية المتأملة لاتقبلُ أنْ يُنْظَرَ الى القيم على أنَّها سلوك جامد تقليديّ لايخضع للحراك الإجتماعي والسياسي والإقتصادي ، وعلى أنَّه وجهٌ اتسم بالإستقرارية والركود ، بل إنَّ القيم هي صورة للفكر الذي مثلَّ تلك الحقبة ، وأنَّها لاتمتاز بالثبات تبعاً لطبيعة المرحلة ومستجداتها .

بل يجب أَنْ ينظر الى القيم وأفكارها على أنَّها ترد ضمن أُطر فكرية مختلفة كالفكرالإقتصادي والإجتماعي والسياسي طرحها الشعراء في أشعارهم ضوابط اجتماعية في ظروف مختلفة مرّ بها ابناء المجتمع لمعالجة مشاكل حياتية مختلفة .

إنَّ وعيَّ هذه المعادلة من قبل المجتمع ، ولاسيما الشعراء هو ما جعلهم يمارسون ضغوطهم على الآخرين من ابناء المجتمع في سبيل إقرار أو استدامة قيم أو رفض قيم أُخرى من خلال قانون الثواب (المديح والفخر) والعقاب (الهجاء والذَّم) أو ربَّما التهديد والوعيد بالحرب والقتال إذا انتهكت حرمات قيم أُخرى (كانتهاك حرمة الجوار) ، وغيرها ...

ويمكن فهم هذه المعادلة من خلال النظريات الإجتماعية ، ومنها نظرية التعلم الإجتماعي لـ (جوليان ب.روتر السيكولوجي الأمريكي)التي((تعتمد من ناحية على اتجاهات نظرية تاريخية في علم النفس ، وهي : المعرفة (مفهوم التوقع) ، الدافعية (مفهوم قيمة التعزيز) ، الموقفية (مفهوم الموقف النفسي) ، والسلوكية (السلوك الذي يتعلمه الفرد ... ومن ناحية أخرى فإنّها تبرز أهمية التوقع في القدرة على التنبؤ بحدوث السلوك))(١) ، ويمكن ربط هذه الإتجاهات بمفهوم (إدراك مصدر الضبط) الذي يشير ((الى مدى قدرة الفرد على ضبط ما يصدر عنه، وإدراكه أنَّ ما يناله من تعزيز يرتبط بعوامل متأصلة في شخصيته ، ... و ...التعزيز ... يعتمد على ما إذا كان الفرد يدرك أنّ هناك علاقة سببية بين سلوكه والثواب الذي يحصل عليه أم لاتوجد علاقة . فالإدراك هنا عملية معرفية يتوسط القيام بالسلوك والحصول على التعزيز ...)) . (٢) وهذه العملية المعرفية في ضوء نظرية التعلم الإجتماعي تسمّى بـ (المعرفة) (مفهوم

التوقع)(٣)، ومن هنا يمثل مصدر الضبط الداخلي للتعزيز((أحد المتغيرات النفسية الهامة التي تساعد على تفسير إدراك الفرد لأسباب حصوله على التعزيز)) (٤)، ومن ثمّ انتهاج الفرد سلوكاً معيناً في ضوء المعرفة (مفهوم التوقع)،والدافعية (مفهومقيمةالتعزيز)،والموقفية(مفهومالموقف النفسي)،والسلوكية (السلوك الذي يتعلمه الفرد)،وبموجب ((المفهومين الأساسيين لتعلم السلوك ... : الثواب والعقاب ، فالثواب / المكافأة يزيد من تكرار السلوك ، بينما تقلل العقوبة من تكراره)) (٥) .

بمثل هذا التصور طرح الجاهلي رؤآه تجاه قيمة الكرم ، وكان واضحاً وجريئاً في ذلك من خلال طرحه مسألة الفقر والحاجة مقرونة بالحياة والموت بشكل مباشر ، ومن ثمّ توظيف فعل الكريم ودوره في إبعاد شبح الموت من خلال ممارسته قيمة الكرم بوصفها قيمة إنسانية لاتخلو من آثار اجتماعية بشكل عام وأثار ذاتية بشكل خاص ، في إطار علاقة اجتماعية لها ضوابط محددة تتجاوز طرفي العلاقة – العاطي والآخذ- لتشمل المجتمع بعمومه .

وقد جعل الجاهليون محور قيمة الكرم الأغنياء الذين كان يعتقد أنّه يقع على كاهلهم مسؤولية رفد الفقراء والمعدمين بالعطاء انطلاقاً من المسؤولية الأخلاقية والأنسانية ، وهذا الأعتقاد كان اعتقاداً جمعياً اكتسب صفة الضابط الإجتماعي الذي ينهر المتقاعس عن أداء واجبه القيميّ الإجتماعيّ المتمثل بالكرم والبذل والعطاء .

لقد كان الجاهلي واعياً ومدركاً لقيمة الكرم وأبعاده الإجتماعية والحياتية المختلفة حين ربط قيمة الكرم بوجوده ومصيره ؛ فهو يرى أنّ الفقراء يواجهون الموت إذا لم يكن هناك مَنْ يقدم لهم المعونة بصفة الكرم الذي لايرتب على المُكْرَمِ سوى تبعات اخلاقية واجتماعية معينة . وهذا الربط وجدناه بشكل واضح وصريح عند الحطيأة ، وهو يحاور أمامة ، ويعرض أفكاره ورؤآه في أسلوب شعريٍّ مؤثّر عندما طلبت منه عدم الجزع من حالة الفقر المدقع الذي بلغ به حدَّ الموت ؛ فيردُّ عليها : إنْ كانت صادقة في طلبها هذا ، فعليها أنْ توفر مالاً يعيشان به ؛ ليذهب عندئذ جزعه ، إذ يقول :(٦)

قَـالَتْ أُمَامَةُ لاتجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الْعَزَاءَ وَإنَّ الصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا
هَلّا الْتَمَسْتِ لَنَا إنْ كُنْتِ صَادِقَة مالاً نَعِيشُ به فِي الْخُرْجِ أَو نَشَبَا

وفي ضوء هذا الواقع فإنَّ المنقذ هو شخص مبرَّزٌ انسانياً ، ومخلِّصٌ للآخر من عذابات الحياة ، ومُضحٍّ بماله ، ويترتب على هذه التضحية والعطاء وجود طرفين : طرف مستفيد حُفِظَتْ عليه حياته ، وطرف فقدَ ماله ، ولابدّ من إثابته ، وهذه المثوبة كانت أحد دوافع كرمه الرئيسة ، وهي بؤرة بحثنا هذا ؛ ولذا اعتقد الحطيأة أنَّ مَنْ يقدر على توفيرلقمة عيشه يستحق المكافأة ـ المديح ـ وهذه

المكافأة هي إحدى وسائل ديمومة العطاء ، ووجوب الإلتزام بهذا العطاء يمثل الضابط الإجتماعيّ الذي حرص المجتمع الجاهليّ عليه من خلال مكافأة مَنْ يلتزم به ، بهذه الرؤية مدح الحطيأة آلَ لأيٍ لقيامهم بهذا الدور :(٧)

حتّى نُجَازِيَ أَقْواماً بِسَعيِهِمُ من آلِ لأيٍ وكانوا سادةً نُجُبَا

وقوله في آل لأيٍ كذلك بعد أَنْ ترك جوار الزِّبْرَقَان بن بدر:(٨)

إنَّ امرأً رَهْطُهُ بالشامِ مَنْزِلُـهُ بِرَمْلِ يَبْرِيْنَ جاراً شَذَّ ما اغتربا
لَن يَعْدَموا رائِحاً من إرْثِ مَـجْدِهِمُ ولَنْ يَبِيْتَ سِواهُمْ حِلمُهُمْ عَزَبَا

... ...

رَدُّوا على جـــارِ مولاهم بِمَهْلِكَةٍ لولا الإلهُ ولولافَضْلُهُم ذَهَبَا

وبهذه الرؤية كذلك هجا الحطيأة بني سعد قوم الزِّبْرقان بن بدر هجاء مخايرة لتقاعسهم عن تحمل مسؤولياهم تجاه جوارهم له ، وكان هذا الهجاء ضابطاً اجتماعياً استخدمه الحطيأة بامتياز حين قال: (٩)

أبْلِغْ سَراةَ بني سَعْدٍ مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسالةِ لا ألْتَاً ولا كذبا
ما كانَ ذَنْبُ بَغِيْضٍ لا أبا لَكُمُ فـي بائِسٍ جاء يحدو أَيْنُقاً شُسُبَا

... ...

ماذَنْبُكَ فـي جارٍ جَعَلْتَ لَـهُ عَيْشَاً، وقد كان ذاقَ المـوتَ أو كَرَبَا
جار أَبَيْتَ لِعَوْفٍ أَنْ يُسَبَ بـــه أَلْقَاهُ قومٌ جُفاةٌ ضَيَّعوا الحَسَبَا
أخْرَجْتَ جارَهُمُ مِنْ قَعْرمُظْلِمَـةٍ لَوْ لَـمْ تُغِثْهُ ثوى في قَعْرِها حِقَبَا

وقوله في هجاء الزبرقان كذلك : (١٠)

قَرَوْا جَارَكَ العَمَيْان لَمّا تركْتَهُ وقلَّصَ عن بَرْدِالشَّرابِ مشافِرُهْ
سَنَامَاً وَمَحْضَاً أَنْبَتَا اللحمَ فاكْتَسَتْ عِظامُ امرئٍ ما كانَ يَشْبَعُ طائرهْ

لذا يمكن القول إنَّ قيمة الكرم لعبت دوراً كبيراً في حياة الجاهلي فوجهت سلوكه القيمي من خلال تحول شعيرة الكرم الى ضابط اجتماعيٍّ يفرض عليه سلوكاً اجتماعياً واضح المعالم محدد الأهداف يحظى بقبول المجتمع ورضاه ، وهذا ما أقرّه علم الإجتماع إذ يرى (جارلس هرتون كولي) : أنَّ ((الضبط الإجتماعي ما هو سوى أحد أوجه العلائق المتبادلة بين الفرد والمجتمع ... أي كلٌّ منهما يضبط الآخر من أجل حماية وجوده وبقائه في النسيج الإجتماعي)) (١١) ، وصفحات البحث اللاحقة تبين دور هذه القيمة في المجتمع الجاهلي في إطار ومحيط القبيلة ، وفي ضوء تشابك العلاقات الإنسانية وتعقيدها ، لا بوصفها قيمة مجرّدة بل بوصفها قيمة فاعلة التأثير على قيم الحياة الأخرى ، وموجهة لسوك الفرد.

قيمة الكرم :

إنَّ قيمة الكرم تكمن في أَنها ضابط اجتماعيّ يحقق من خلاله الكريم أهدافاً طالما سعى الى تحقيقها تتعلق بموقعه الإجتماعيّ والسياسيّ فضلاً عن جانبها الإنساني الذي كان يؤمن به ، فهو من خلال قيمة الكرم يحقق ذاته ووجوده بوصفه فرداً متميّزاً عن غيره في قدرته على التعامل مع الآخر في إفادته ماديّاً ، والإتصال به روحيّاً ، وهذا ما جعل الآخر يمنحه ثقته ، ويوليه زمام قيادته ، ويسوّده عليه ، وعلى مَنْ يعجز عن فعل ما فعله .

وقد أيّدت هذه الفكرة النظرياتُ الإجتماعيةُ التي ((تتفق على أنَّ أغلبية الناس يحتاجون لإدراك ذاتهم ، والإيمان بذاتهم أنْ يكونوا مقبولين ومعترفاً بهم من طرف المحيط الإجتماعي))(١٢) ، وكات وسيلة الجاهلي لتحقيق هذا القبول والإعتراف هي الكرم .

ولقد كان هذا القبول والإعتراف أمنية الكريم التي ولّدت في نفسه شعوراً بالنشوة وحققت له منفعة معنوية ـ قللت من أثر الكرم الماديّ على نفسه ؛ لأنّ الإنسان جبل على حب المال والطمع فيه ، فيكون الثواب على الكرم بعدئذ تعويضاً عادلاً يناله الكريم ـ ومادّيّة تمثّلت بالإقرار بتمّيزه وأهليته للسيادة على الآخر، وإذن كانت قيمة الكرم هي مقياس المخايرة في المنزلة الإجتماعية والسياسية التي ينالها .

وإذاً يمكن القول : ((إنَّ الخضوع للضوابط الإجتماعية والإلتزام بعناصرها لايحصل تلقائياً أو إنسيابياً، بل هناك مصالح متبادلة بين الفرد والجماعة إذا خضع الفرد لضغوطها ، ومن ثمّ تتبادل المصالح بينهما ، وإذا لم يخضع الفرد لضغوط جماعته انقطع التبادل– أي تبادل المصالح بينهما-))(١٣) .

في ضوء هذه المعادلة القيمية التي أدركها الجاهلي كان صراع التسابق على الإلتزام والإتصاف بها كبيراً وطوعياً عكسته اشعار الشعراء في أغراض الشعر المختلفة ، وهي تتغنى بهذه القيمة ، ومن صور تغني الشعراء بها فخر حاتم الطائي بنفسه إذ يقول : (١٤)

وإنّي لَعَفُّ الفَقْرِ، مُشْتَرَكُ الغِنى وَوُدُّكَ شَكْلٌ لا يُوافِقُهُ شَكْلي
وَشَكْلِيَ شَكْلٌ لا يقومُ بمثله مِنَ النّاسِ إلّا كُلُّ ذِي خُلُقٍ مثلي
ولي نيقة في المجد والبذل لم يكن تأَثَّقَها فيمن مضى أحد قبلي

وَلِيْ مَعَ بَذْلِ المالِ والبَأسِ صَوْلَةٌ إذا الحَرْبُ أبْدَتْ عَنْ نَواجِذِها العُصْلِ
سَيكْفِي ابْتِنَائِي المَجْدَ سَعْدَ بْنَ حَشْرَجٍ وأَحْمِلُ عَنْكُمْ كُلَّ مَا حَلَّ فِي أَزْلِ
وَمَا مِنْ لَئِيمٍ عَالَهُ الدَّهْرُ مَرَّةً فَيَذْكُرَها إلّا اسْتَمَالَ الى البُخْلِ

فَقَدْتُ الّذي مِنّا يَرَى البُخْلَ رِفْعَةً إذا حَلَّ ضَيْفٌ لا يُمِرُّ ولا يُحْلِي

وعلــى الرغم من كـون الكرم قيمة اجتماعية امتثل لها الجاهلي ؛ لأنّه أدرك أنَّ ((المماثلة الإجتماعية مع أعراف وقيم ونواميس القبيلة في السلوك والتفكيرجزء من متطلبات الحياة القبيلة الأساسية)) (١٥)، فإنّنا نجده يعاني نفسيّاً ، وهو يتخرق عطاء بماله من أجل هذا الإمتثال ، فهذا لبيد بن ربيعة العامري يعلن صراحة أنَّه يقاسي خطوباً ما يقوم لها الإ الكرام الصّبُر وحصرها في أمرين ، أحدهما فقد ابن عمٍّ ، والآخر رزء المال أي إعطاؤه وإنْ كان سيعود بعد ذهابه في يوم ما في صورة ثناء أو تحصيل مال، وذلك حين قال : (١٦)

إنّي أُقاسِي خُطوباً ما يقومُ لَهَا إلّا الكرامُ على أمْثَالِهَا الصُّبُرُ
مِنْ فَقْدِ مولىً تَصُورُ الحَيَّ جَفْنَتُهُ أو رزء مال ، ورزءُ المالِ يُجْتَبَرُ

لذا حاول الجاهليّ إقناع نفسه من خلال محاورتها بضرورة دوام هذا الإمتثال والتوافق مع المجتمع ؛ ومن أجل هذاجعل سلوك الوارث غير المنضبط إجتماعياً دافعاً من دوافع الكرم الإجتماعية زيادة على تحصيل مرتبة الشـــرف والسؤدد ، يقول حاتم الطائي: (١٧)

أهِنْ لِلَّذي تَهْوَى التِّلادَ فإنَّهُ إذا مُتَّ كانَ المَالُ نَهْباً مُقَسَّما
ولا تَشْقَيَنْ فِيْهِ فَيَسْعَدَ وَارِثٌ به ، حِيْنَ تُحْشَى أغْبَرَ اللَّوْنِ مُظْلِما
يُقَسِّمُهُ غُنْماً وَيَشْرِي كَرَامَةً وَقَدْ صِرْتَ في خَطٍّ مِنَ الأرْضِ أعظما
قَلِيْلٌ به ما يَحْمَدَنَّكَ وَارِثٌ إذا سَاقَ مِمَّا كُنْتَ تَجْمَعُ مَغْنَمَا

إنّهُ يمكن القول : إن فعل الوارث في تقسيم المال واتلافه وسعادته به ، وعدم اكتراثه بالميِّت صاحب المال هو إخلال بالضابط الإجتماعي ، وقد توافق سلوك الورّاث على هذا مما مثّل ظاهرة إجتماعية ، وسلوكاً إجتماعياً؛دفع الجاهلي الى تشخيصه،ومن ثمّ الرّدَ على الوارث بإتلافه المال من خلال قيمة الكرم ، وهذا الفعل القيميّ يمثل عقوبة للوارث ، وتقويماً لسلوكه مستقبلاً،وردعاً له للعودة الى منهج القيم،وضرورة الإقرار بحقّ الآخر في وجوب الشكر والحمد .

كما جعل كذلك في التفاتة ذكية منه قصور المال عن الحزن عليه أو البكاء عليه حين يموت دافعاً لإنفاقه ؛ طالما هو لايبكيه ولا يفتقده إذا مات ، وإذاً فالمال لايستحق أنْ يحتفظ به ، وبمثل هذه الرؤية الحياتية واصل الجاهليّ كرمه ، ولم ينقطع عنه ، وفي قول حَرِّي بن ضمرة النهشلي مصداق هذه الفكرة ، وهو يخاطب لائمته على إنفاقه المال : (١٨)

أَرَأَيْتَ إنْ صَرَخَتْ بِلَيْلٍ هَامَتِي وَخَرَجْتُ مِنْهَا عَارِياً أثْوابِي
هَلْ تَخْمِشَنْ إبِلِي عَلَيَّ وُجُوهَهَا او تَعْصِبَنَّ رُؤُوسَهَا بِسِلَابِ

ومهما تعددت أسباب الكرم وبواعثه عند الجاهلي فهي رهينة تكوينه النفسي المتمثل بمروءته التي كانت الدافع الرئيس للكرم ، فهي قيمة ما فتئ يتغنى

بها مفتخراً ، وهي قيمة فرضت نفسها عليه كذلك كقيمة إجتماعية ، يجب عليه الإلتزام بها ، ولاسيما في سني المحل التي توجب على الأغنياء من ذوي المروءة العطاء وعدم وطء الضعيف والتنفيس عن المُلْجَأ اليهم ، وفي مثل هذا يقول الحادرة الأوسيّ : (١٩)

هلّا سَأَلْتِ إذا هُمُ احْتَمَلُوا فَتَحَوَّلُوا لِخَطِيْطَةٍ مَحْلِ
يُعْيي الرِّعَاءَ بها مَسَارِحُهُمْ وَجَفَتْ مَرَاتِعُهَا عَنِ البُزْلِ
إذْ لا يُدَنِّسُنا الشِّتَاءُ ولا نَطَأُ الضَّعِيْفَ إرَادَةَ الأَكْلِ
وَيُنَفِّسُونَ عَنِ المُضَافِ إذا نَظَرَ الفَوَارِسُ عَوَرَةَ الرَّجْلِ

وبمثله كذلك فخر المرقش الأكبر بقومه : (٢٠)

شُعْثٌ مَقَادِمُنَا نُهْبَى مَرَاجِلُنَا نَأسُوا بأمْوَالِنَا آثارَ أيْدِيْنَا
المُطْعِمُونَ إذا هَبَّتْ شَآمِيَّةٌ وَخَيْرُ نَادٍ رَآهُ النَّاسُ نَادِيْنَا

وبمثله كذلك بكت الفارعة بنت شداد أخاها مسعود بن شداد واصفة إياه بقولها : (٢١)

هُوَ الفَتَى يَحْمَدُ الجِيْرَانُ مَشْهَدَهُ عِنْدَ الشِّتَاءِ وَقَدْ هَمُّوا بِإخْمَادِ

ولا يبتعد طرفة بن العبد كثيراً عن ذلك حين يفخر أنَّ قومه يعمون بدعوتهم الى الطعام ولايخصون بها الأغنياء دون الفقراء في أشدّ الأوقات وأصعبها شتاءً ، قائلاً : (٢٢)

نَحْنُ في المَشْتَاةِ نَدْعُوا الجَفَلَى لا تَرَى الآدِبَ فِيْنَا يَنْتَقِرْ

ونجده كذلك يجعل للكرم عند قومه أفقاً مفتوحاً،وزمناً لامتناهياً ، حين جعلهم كرماء كلما أجدب الناس،وبخلت السماء بدرّها ، فهم من أجل ذلك يحبسون أنفسهم وأموالهم بغية خدمة ضيف أو معترّ أو طالب حاجة أو طارق ليل، وماذاك إلّا مروءة منهم خوف التقصير،وتجنب ما يوجب اللوم ، يقول طرفة : (٢٣)

حُبُسٌ في المَحْلِ حَتَّى يُفْسِحُوا لابْتِغَاءِ المَجْدِ أوْ تَرْكِ الفَنَدْ

وقد يصيب بعضَنا العجبُ ، وتتملكه الدهشةُ لمثل هذا الفعل ، ولمثل هذه المروءة بيد أنَّ كلَ ذلك يتبدد إذا علمنا أنَّ طبيعة حياة الجاهلي تجعل منه مرة مكرماً وتجعل منه تارة أخرى طالب كرم ، وإدراكاً منه لهذا نجده مرّة ممدوحاً أو مفتخراً به ، ومرةً مادحاً مثنياً على الآخر ، ومثالنا لهذه الحال طرفة بن العبد الذي ألفناه قبل قليل مفتخراً بكرم قومه ، ونقدمه الآن مادحاً لقتادة بن سلمة الحنفي ،ـ وكان قتادة يسمّى غيث الضّريك ـ إذ مدحه حين أحسن العطية لقومه- قوم طرفة - وقد أتوه بعد أنْ أصابتهم سنة مجدبة ، قائلاً : (٢٤)

أَبْلِغْ قَتَادَةَ غَيْرَ سَائِلِهِ مِنْهُ الثَّوابَ وَعَاجِلَ الشكْمِ
أَنّي حَمِدْتُكَ لِلْعَشِيْرَةِ إذْ جَاءَتْ إلَيْكَ مُرِقَّةَ العَظْمِ
أَلقَوْا إليكَ بكلِّ أرْمَلَةٍ شَعْثَاءَ تَحْمِلُ مُنْقَعَ البُرْمِ

فَفَتَحْتَ بَابَكَ لِلْمَكَارِمِ حِـ يـنَ تَوَاصَتِ الأبْوَابُ بالأزْمِ

وإذن فلقد سجل الضبط الإجتماعي حضوره في حياة الجاهلي ، وكانت القيم وسيلة ذلك الضبط ، وكان لقيمة الكرم حضور في هذا الضبط ، وكان التخلي عنه أو إغفاله يعني أنَّه يعرض نفسه للعقوبة ، ولعلَّ الذّم كان أقسى عقوبة يخافها الجاهلي ؛ لذا كان حريصاً على الإلتزام بالقيم ، وقد عوَّد نفسه على ممارستها تعويداً خوف الآخر، والعادة كما يرى كارل منهايم ((هي من أقدم أنواع الضبط الإجتماعي)) (٢٥) وبهذا التعويد على الكرم ، وعلى المواظبة عليه ، يحاور حاتم الطائي لائمته مفتخراً : (٢٦)

وَقَائِلَةٍ : أهْلَكْتَ فِي الجُوْدِ مَالَنَا وَنَفْسَكَ ، حَتَّى ضَرَّ نَفْسَكَ جُودُها
فَقُلْتُ دَعِيْنِي ، إنَّمَا تِلْكَ عَادَةٌ لِكلِّ كَرِيْمٍ عَادَةٌ يَسْتَعِيْدُهَا

وقوله : (٢٧)

تَقُولُ : ألا أمْسِكْ عَلَيْكَ ، فإنّنِي أَرَى المَالَ عند المُمْسِكِيْنَ مُعَبَّدا
ذَرِيْنِي وَمَالِي ، إنَّ مَالَكِ وَافِرٌ وَكُلُّ امْرِئٍ جَارٍ على ما تَعَوَّدا

وبذا يمكن القول إنّ العطاء لم يكن عملاً ارتجالياً أو عملاً واقعاً تحت تأثير مؤقت ، بل هو عمل يجري على وفق طريقة معروفة ملزمة لصاحب العطاء، إنّها سنّة سنَّها الآباء للأبناء والخروج عليها يعدّ مثلبة للحسب ؛ لأنَّ السنّة هي العادة التي تسير على وفقها الشعوب ، ـ ولكلّ عادة لابدّ من إمام وقائد يسهم في إدامتها ولاسيما في المجتمعات الصغيرة كالقبيلة ـ فتصبح ضابطاً اجتماعياً يقاس عليه الفعل ، وبموجبه يقيّم الفرد سلباً أو إيجاباً ، وإذن العادة هي إحدى وسائل الضبط التي ينشّأ عليها الفرد في المجتمع حتى تصبح جزءاً من منظومته القيمية التي يفتخر بها ، وهذه العادات ((تعدُّ من أقوى الروابط لبناء النظام الإجتماعي ، وهنا يمكن اعتبار العادات مساوية للنظام الإخلاقي الذي يقره المجتمع ويتمسك به)) (٢٨) ، وهذا التمسك بالعادات والقيم كما يرى كارل منهايم ((لايتأتى من كونها أشياء أو كيانات متسامية بل يتأتى من حاجتنا وحاجة نظامنا الإجتماعي لها)) (٢٩) ، إذ ((تتجلى فائدة التقاليد بالدور المهم الذي تلعبه في تكييف الأفراد للمجتمع ، هذا التكييف الذي يحقق وحدة المجتمع وصلابته)) (٣٠) وها هو لبيد بن ربيعة يفخر بهذه العادة في الكرم التي التزم بها سادة قومه ، وسادة قوم لبيد توارثوا الكرم وراثة عن آبائهم ، وتأثروا بهم ، وقد علل كارل منهايم مثل هذا التأثر حين قال ((إنَّ تأثر الفرد بالآخرين وتحلّيه بأخلاقيتهم وسلوكيتهم إنَّما يبدأ في هذا النوع من الجماعات ، الجماعات التي يكتسب الفرد منها شعوره بالوحدة والإنتماء))(٣١) ومن هذا الفخر قوله : (٣٢)

وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي العَشِيْرَةَ حَقَّها وَمُغَذْمِرٌ لِحقُوقِهَا هَضَّامُها
فَضْلاً ، وذو كَرَم يُعِيْنُ على النَّدَى سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُها

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكلِّ قَوْمٍ سنّةٌ وإمَامُهَا

ومثله افتخر ابن مقبل بهذه العادة ، قائلاً : (٣٣)

وَجَوْفَاءَ يَجْنَحُ فِيْهَا الضَّرِيكُ لِحِيْنِ الشِّتَاءِ جُنُوْحَ العَرِنْ
مَلأْتُ فَأْتَرَعْتُهَا تَابِلَـي عَلَـى عَادَةٍ مِنْ كَرِيْمٍ فَطِنْ

بل إنّنا نجد الجاهليّ يعتقد أنَّ المُبَرّز من الرجال هو مَنْ يسهّل عليه تعوّد شيم الكرم والقيم المثلى الأخرى ويضحي في سبيلها ، ويعوّد قومه عليها حتى تصبح عادة لايستطاع الفكاك من أثر أسرها ، وهكذا كذلك أقرَّ علماء الإجتماع دور العادة في المجتمع ، يقول برغسون ((إنَّ مصدر الإلتزام والواجبات هو العادات المكتسبة في المجتمع ، فتلقي هذه العادات وممارستها يلزم الإنسان بل يشعره بالإلتزام بها . وهكذا يتكون السلوك الإنساني ويصبح متوازناً وسليماً بقدر التزام الإنسان بالقيم الإجتماعية التي يكتسبها في مجتمعه ، بل التي يفرضها عليه مجتمعه)) (٣٤) وبهذا وصف زهير بن أبي سلمى سنان بن أبي حارثة المريّ بعد أنْ مدحه بالكرم : (٣٥)

... ...
عَوَّدْتَ قَوْمَكَ ، إنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ مَهْمَا يُعَوَّدْ شِيْمَةً يَتَعَوَّدِ
حَزْمَاً وَبِرّاً للإلهِ وَشِيْمَةً تَعْفُو عَلَـى خُلُقِ المُسِئِ المُفْسِدِ

وقد يجنف المرء عن الحقّ إذا قال إنَّ الكرم عند الجاهلي كان استجابة لضوابط اجتماعية فحسب ، ـ على الرّغم من دور الضوابط الإجتماعية الكبير في تهذيب النفوس من شحّها ، وتذليها للسماحة والعطاء ، لاسيما إذا لاقت توافقاً مع طبيعة نفس الجاهلي ـ لأن الكرم كان كذلك سجية في طبعه ، وشيمة من شيمه ، فهو يمارس قيمة الكرم انسجاماً مع إحساسه وشعوره بضرورة ذلك مروءة وخلقاً ، وحباً منه للسمو والتحليق في سما المعالي ، فهذا المرقش الأكبر يكرم الذئب حين ضافه عاى نار شوائه حياءً ، وعدَّ عدم اكرامه فحشاً على مَنْ يجالس ، ويصف فرح الذئب بذلك الإكرام حين عاد به ؛ وكأنّه مقاتل شجاع عاد بنهب ، وما هذا إلا للتدليل على المروءة ، إذ يقول : (٣٦)

وَلَمَّا أَضَأْنَا النَّارَ عِنْدَ شِوَائِنَا عَرَانَا عَلَيْهَا أَطْلَسُ الْلَّوْنِ بَائِسُ
نَبَذْتُ إليهِ حُزَّةً مِنْ شِوَائِنَا حَيَاءً وَمَا فُحْشِي عَلَى مَنْ أُجَالِسُ
فَآضَ بِهَا جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأسَهُ كَمَا آبَ بِالنَّهْبِ الكَمِيُّ المخالسُ

في حين نجد مهجو الحطيأة مجرد من سجية الكرم ، حيث يقول : (٣٧)

وَأَنْتَ امْرُؤٌ لاالجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فَتُعْطِي ، وَقَدْ يُعْدِي عَلَى النَّائِلِ الوُجْدُ

ولذا يجب أنْ لانفصل بين طبيعة الإنسان وخِيَمِهِ وبين ممارسة القيمة ، فحيثما كان طبع الكرم موجوداً فإنَّ القيمة تهذب النفس ، وتشذب السلوك ، وترسخ ما جبل عليه الإنسان فلا يعدل عنه ، ويكون أكثر قدرة على التعاطي مع

القيمة ، وأكثر قدرة على تسبيب الفعل ؛ بغية إزالة توتر الذات ومنحها أريحية الفعل ، وهكذا افتخر عنترة بأنّ الجود شيمة الأحرار والطبع غالب:(٣٨)

وأعْلَمُ أنَّ الجُودَ في النَّاسِ شيمة تقومُ بها الأحرارُ والطبعُ يغلبُ

ووصف الحادرة الأوسي عطاء ممدوحه بأنّه سجيّة ؛ لذا صَاحَبَ عَطَاءَهُ شعورُ اللذة بالعلياء ، والكبر، والإختيال، ولاسيما حين يتوجب العطاء ، إذ يقول : (٣٩)

سَمْحُ الخَلائِقِ مِكْرَاماً ضَرِيْبَتُهُ إذا تَهَشَّمْتَهُ للنَّائِلِ اخْتالا

وإذا شئنا أنْ ندلل على سجية الكرم البديهية والتلقائية فإنَّ عروة بن الورد خير مَنْ رسم لنا أبعاد هذه السجية ، وهو ينطلق من خلال فهم نفسيٍّ عميق للضيف ، وطالب المعروف ، وبصورة لافتة للنظر ، تسرُّ محبي الكرم ، حين اعتقد أنَّ الكرم ليس القرى الماديَّ فحسب ، بل هو مراحل ، أولها البشاشة في وجه الضيف ، حيث يقول : (٤٠)

سَلِي الطّارِقَ المُعْتَرّ يا أُمَّ مَالِكِ إذا ما أتاني بينَ قِدْرِي ومَجْزَرِي
أَيُسْفِرُ وَجْهِي ، إنّهُ أوَّلُ القِرى وأبْذلُ معروفي لــه دونَ منكري

ومن ثَمَّ الحديث مع الضيف ، وعدم الإنشغال عنه ، و... ، وكلٌّ يولّد في نفسه السكينة والإطمئنان ، كما يقول عروة بن الورد : (٤١)

فِراشي فِراشُ الضَّيفِ والبَيْتُ بيتُه ولَـمْ يُلْهِني عنـهُ غَزَالٌ مُقنَّعُ
أُحَدِّثُه إنَّ الحديثَ مِنَ القِرَى وَتَعْلَمُ نفسي أنَّه سَوْفَ يَهْجَعُ

ومن هنا ندرك ((أنَّ القيم لاتتجسد طبيعتها في الشيء أو النشاط الذي تعبر عنه ،بل تتجسد أهميتها بالوظائف الإجتماعية التي تؤديها للمجتمع ، وبالمركز الذي تلعبه في تنظيم وتطويرالحياة الإجتماعية)) (٤٢) .

حقّاً كان الجاهليُّ في كرمه يحقق اللذة التي تمثلت في الخيلاء الذي يصيبه ، والسرور الذي يشعر به ؛ فيختال كما الحمام بعد السِّفاد تعبيراً عن نشوة متحققة ، ولذّة شعر بها ، فأراد تجسيدها في صورة فعل معبر، ينمُّ عن شعور بالعظمة ، والقدرة على الفعل ، وقد كان قيس بن الخطيم خير من جسّدَ هذا الإحساس حين افتخر قائلاً : (٤٣)

إذا مَا اصْطَبَحْتُ أرْبَعَاً خَطّ مِنْزَرِي وأتْبَعْتُ دَلْوي في السَّخَاءِ رِشَاءَها

وبهذا المنهج السلوكي والفكري خاطب قيس بن عاصم المنقري زوجته منفوسة بنت زيد الفوارس الضبّي حين أتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال : فأينَ أكيلي؟ فلم تعلم ما يريد ؛ فأنشأ يقول : (٤٤)

أيا ابْنَةَ عَبْدِاللهِ وابْنَةَ مَالِكٍ ويابْنَةَ ذِي البُرْدَيْنِ والفَرَسِ الوَرْدِ
إذا مَا عَمَلْتِ الزَّادَ فالتَمِسِي لَهُ أكِيْلاً فإنِّـي لَسْتُ آكِلَـهُ وَحْدِي
أخَاً طارقاً أو جارَ بيت فإنَّني أخَافُ مَلامَاتِ الأحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَكَيْفَ يُسِيْغُ المَرْءُ زَاداً وَجَارُهُ خَفِيْفُ المِعَى بَادِي الخَصَاصَةِ والجَهْدِ

وعلى الرّغم من كون الكرم سجية عند الجاهلي إلا أنّه كان ضابطاً اجتماعياً فرض قيوده ومراسيمه عليه في صور وآليات تنفيذ تعبر عنه،ولعلَّ أحد هذه الصور صورة عدم تناول الطعام بشكل انفرادي ، بل لابد من أكيل كما عند قيس بن عاصم المنقري ، وإذا لم يحصل هذا نجده يتعذّر عن ذلك ، وله عذر مقبول ، كما في ممدوح الحادرة الذي مدحه : (٤٥)

فَتَىً لايَنَالُ الزَّادَ إلا مُعَذَّراً كَأَعْلى سِنَانِ الرُّمْحِ بَلْ هو أَنْجَدُ

كما جسد الجاهلي الكرم في صورة حقّ للآخر شرط تلبيته متطلبات الحياة القيمية للمجتمع،فالكرم حقٌّ في مال الكريم لمن يحتاجه أو لمن يحظى به،وإذا أُعطي هذا الحقّ لأهله؛جنَّبَ الكريمُ نفسَهُ الذّمَّ ، وهو شدَّ ما يخافه ويتقيه،وفي مثل هذا يقول نهشل بن حَرِّيّ:(٤٦)

لنا إبِلٌ لَمْ نَكْتَسِبْهَا بِغَدْرَةٍ وَلَمْ يُغْنِ مَوْلاها السّنونُ الأحَامِسُ
نُحَلِّيهَا عن جَارِنَا وَشَرِيْبِنَا وإنْ صَبَّحَتْنا وهي عُوْجٌ خَوَامِسُ
ويَحْبِسُها في كُلِّ يوم كَرِيْهَةٍ ولِلْحَقِّ في مَالِ الكَرِيْمِ مَحَابِسُ
وحتى تُرِيْحَ الذمَّ والذَمُّ يُتَّقَى ويروي بذاتِ الجَمَّةِ المتغامِسُ

كما يكون كرمه في الجدب نوعاً من وفائه لحسبه الذي يوجب عليه إعطاء الحقوق كي يصونه مما يدنسه أو يعيبه ، وبهذا الإعتقاد القيميّ فخر لبيد بن ربيعة قائلاً : : (٤٧)

نُعْطِي حُقُوقَاً على الأحْسَابِ ضَامِنَة حَتّى يُنَوِّرُ في قُرْيَانِه الزَّهَرُ

وكذا كان ممدوح حسان بن ثابت حين وصفه بأنّه : (٤٨)

يُعْطِي العَشِيْرَةَ حَقَّها وَيَزِيْدُهَا وَيَحُوطُها في النَّائِباتِ المُعْضِلِ

إنّ الإقرار بمعرفة هذا الحقّ ووجوب العمل به هو ضابط إجتماعي ملزم لأبناء المجتمع ، فكان الإلتزام به مادة فخره التي تميّزه عن غيره ، ومن هذا الفخر ماورد في رثاء الخنساء لأخيها صخر : (٤٩)

نَعِفُّ وَنَعْرِفُ حَقَّ القِرَى وَنَتَّخِذُ الْحَمْدَ والمَجْدَ كَنْزَا

لذا كان الجاهلي يستحي من عدم الوفاء بهذا الحقّ حين يأتيه طالب المعروف ، كما صرح بذلك ابن مقبل : (٥٠)

وإنّي لأسْتَحْيي وفي الحَقِّ مُسْتَحَىً إذا جَاءَ بَاغِي العُرْفِ أنْ أتَعَذَّرَا

ولذا وجدنا ابن مقبل يفخر بإعطائه هذا الحقّ لِمَنْ يفاجئه من الضيوف ؛ لكي لايعرض نفسه للذمّ من قبل هذا الضيف الذي نزل عليه دون ميعاد في ليلة شتائية باردة،تتخرق الدّيار فيها رياح باردة قبيل الصبح تكاد بالماء تنضح : (٥١)

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنْ لايَذُمُّ فُجَاءَتِي دَخِيْلِي إذا اغْبَرَّ العِضَاهُ المُجَلَّحُ
وَهَبَّتْ شَمَالاً تَهْتِكُ السِّتْرَ قَرَّةٌ تَكَادُ قُبَيْلَ الصُّبْحِ بالمَاءِ تَنْضَحُ

بل إنّنا نجد الجاهلي يغالي في هذا الحقّ في طرحه فكرة كرمه مغالاة تنمّ عن عمق ترسخها في نفسه وشدّة إيمانه بها حدّاً يصل به الى اعلان أنّ غاية كسبه المال هي بذل هذا المال لطارق ليل جائع ، أو لفك أسير مكبل ، وفي مثل هذا يقول دريد ابن الصمّة : (٥٢)

وَإنْ تَسْألي الأقْوَامَ عَنِّي فإنّني لَمُشْتَرَكٌ مِالِي فَدُونَكِ فاسْألي

وَمَا إنْ كَسَبْتُ المَالَ إلا لِبَذْلِهِ لِطَارِقِ لَيْلٍ أَوْ لِعَانٍ مُكَبَّلِ

وفي سبيل هذا البذل كان الجاهلي يرفض متابعة الخارجين عليه ، كما هو حال مرثيّ العَوْراء بنت سُبَيْع وهي تصفه قائلة : (٥٣)

يَعْصِي البَخِيْلَ إذا أَرَا دَ الْمَجْدَ مَخْلُوعَاً عِذَارُهْ

أو كان يبذل هذا المال للمرضعات من النِّساء اللاتي يكنَّ في أشدّ الحاجة الى الطعام وللسائل والضيفان والجار حين يشتدّ البرد في الشتاء،يقول دريد بن الصمّة : (٥٤)

لَقَدْ عَلِمَ المَرَاضِعُ في جُمَادَى إذا اسْتَعْجَلْنَ عَنْ حَزٍّ بِنهسِ

بِأنّي لا أبِيْتُ بِغَيْرِ لَحْمٍ وأبْدَأُ بالأَرَامِلِ حِيْنَ أُمْسِي

وَأنّي لايَهِرُّ الضَّيْفَ كَلْبي ولاجَارِي يَبِيْتُ خَبِيْثَ نَفْسِي

نعم لقد ترسخت فكرة الكرم الحقيّة في نفس الجاهلي ترسخاً يقينياً ، ولا سيما على أشراف القوم من صلحائهم ، حتّى غدت حقّاً معلوماً في أموالهم ، ولعمري فإنّ الجاهلي في هذا أصبح قاب قوسين أو أدنى من مفهوم الزكاة والصدقة في الإسلام ، وربّما كان هذا هو سرّ قبول العربي للإسلام ، وحمل رايته ، ... وقد عبر عن هذه اليقينية القيمية الضابطة ابن مقبل حين قال :(٥٥)

في دَارِ حَيٍّ يُهِينُونَ اللِّحَامَ وَهُمْ لِلْجَارِ والضَّيْفِ يَغْشَاهُمْ مَكَارِيْمُ

قَدْ أَيْقَنُوا أَنَّ مَالَ المَرْءِ يَتْبَعُهُ حَقٌّ عَلَى صَالِحِ الأَقْوَام مَعْلُومُ

وعلى وفق قيمة الكرم كان تقييم الفرد اجتماعيّاً ، إذ ((يلعب التقييم دوراً كبيراً في الحياة الإجتماعية الخاصة والعامة . فالتقاليد والقوانين والقيادة والسمعة تمثل ظواهر يكون فيها التقييم شيئاً جوهرياً)) (٥٦) ومن هنا كان خير الرجال في ضوء هذه الشعيرة مَنْ يغشاه السُّؤَالُ والضّيفان ، فهو مثلُ الأرض الخيّرة التي يكثر وطّاؤها وناسها ، كما تصف لنا ذلك هند بنت الخسّ : (٥٧)

خَيْرُ الرِّجَالِ الْمُرْهَقُونَ كَمَا خَيْرُ تِلَاعِ الأَرْضِ أَوْطَؤُها

إنَّ مصدر الضبط في فعل قيمة الكرم على وفق تحليل علماء الإجتماع والنفس بموجب الإتجاه السلوكي المعرفي يقوم ((على افتراض مفاده : إنَّ الطريقة التي يسلك بها الأفراد تتأثر الى حدٍّ بعيد بما يدركون من علاقات سببية

بين السلوك ونتائجه)) (٥٨) - وإن كنّا نضع في الحسبان التكوين النفسي للمرء بوصفه خاضعاً لنوازع البخل والسخاء - فالجاهلي كان يخاف الذمّ حفاظاً على مكانته الإجتماعية ، مثلما كان يطمح الى التميّز والتفوق على الآخر ، وهذا ما جعله في وضع نفسيٍّ مستقر يؤهله أنْ يعطي كرماً أعزَّ ما يملك من مال لِمُعْسِرٍ أو لِمُعْتَرٍّ أو لطالب حاجة أو ضيف أو ... عن طيب خاطر ورضاً ، كما هو حال ممدوح حسّان ابن ثابت:(٥٩)

وفَتَىً يُحِبُّ الحَمْدَ يَجْعَلُ مَالَهُ مِنْ دُونِ وَالِدِهِ وإنْ لَمْ يُسْأَلِ

وممدوح الأسود بن يعفر كذلك : (٦٠)

فَتَىً يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَا إذا السَّنَةَ الشَّهْبَاءُ أَعْوَزَهَا القَطْرُ

إذن لم يكن الجاهلي يبغي في عطائه ثمناً ماديّاً من أحد غير الله، بل كانت غايته بلوغ المجد الإجتماعي،وهذا لايتحقق إلّا بحمد النّاس، وشكرهم لصنيعه،وفي هذا قالت أمُّ الصّريح الكندية وهي ترثي أخاها" (٦١)

الوَاهِبَ الأَلْفَ لايَبْغِي لَهَا ثَمَنَاً إلَّا مِنَ اللهِ والْحَمْدَ الَّذي صَنَعَا

إذن بلوغ الحمد أمر لابدّ منه ، وليس هناك من وسيلة لبلوغه سوى الكرم الذي يمثل ثمنه الباهض ، كما يقول علقمة : (٦٢)

والجُودُ نَافِيَةٌ لِلْمَالِ مُهْلِكَةٌ والبُخْلُ مُبْقٍ لأهليه ومَذْمُومُ

... ...

والحَمْدُ لايُشْتَرَى إلَّا لَهُ ثَمَنٌ مِمَّا تَضِنُّ بِهِ النُّفُوسُ مَعْلومُ

وقد قبل الجاهلي بهذا الثمن شرط تحقق مبدأ الحمد،يقول الأسود بن يعفر : (٦٣)

وإنّا لَنُقْرِي حِيْنَ نُحْمَدُ بالقِرَى بَقَايَا شُحُوْمَ الآبِيَاتِ المفارقِ

وقد قبل المجتمع شرطه ، وشدّ اليه رحاله مادحاً على وفق شرطه ، كما في قول بِشر ابن أبي خازم الأسدي مادحاً أوس بن حارثة الطائي : (٦٤)

قَطَعْتُ الى مَعْرُوفِهَا مُنْكَراتِهَا بِعَيْهَمَةٍ تَنْسَلُّ ، واللَّيْلُ هَاكِعُ
الى مَاجِدٍ أَعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ جَمِيْلِ الْمُحَيَّا ، لِلْمَغَارِمِ دَافِعُ

وفي قول حسّان بن ثابت و الذي أقرّ بحقّ الكريم في الحمد : (٦٥)

أُكَلِفُهَا أَنْ تُدْلِجَ اللَّيْلَ كُلَّهُ تَرُوحُ الى بَابِ ابْنِ سَلْمَى وتَغْتَدِي
تَزُورُ امْرَءاً أَعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ ومَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ المَحَامِدِ يُحْمَدِ

إنَّ جدلية العلاقة الثنائية بين الفرد - الكريم الجاهلي– الذي قبل بالكرم ثمناً باهضاً شرطاً لنيل الحمد وبين مجتمعه الذي قبل هذا الشرط حين شدَّ أفراده الرحال اليه مادحين ومثنين؛ يمكن فكُّ أسرارها ولغزها على وفق نظرية المقارنة الإجتماعية لـ (فستنجر)التي ترى((أنَّ الناس يمتلكون حاجة أساسية لتقييم أفكارهم

واتجاهاتهم ، والتأكد من صحة هذه الأفكار والإتجاهات بناء على ذلك.فهذا التأكيد يطمئنهم الى كفاءتهم،وقدرتهم على التحكم بالعالم المحيط))(٦٦) .

ومن هنا كانت ممارسة قيمة الكرم عند الجاهلي في واقعها ودافعها – فضلاً عن الدوافع الأخرى – هي وسيلة لتقييم هذا الفعل القيميّ على الصعيد الفكري والإجتماعي ، وكان شرط الثناء الذي وضعه الجاهلي على ممارسة هذه القيمة معياراً يقيس به صحة هذه الممارسة القيميّة فإذا ما تحقق هذا الشرط كان وسيلة تطمئنه الى كفاءته وقدرته على التحكم بمجتمعه .

وانطلاقاً من هذا الفهم كان الحمد مغنماً يحققه الجاهلي ويحسد عليه ، وله غيث يروده السبّاقون من الكرماء ، وربّما استعصى على كثيرين ، كما يرى النابغة الذبياني وهو يمدح رجلاً سوقة من كلب يقال له: النعمان بن جبلة بن وائل بن الجُلاح ، وكان النعمان هذا أغار على بني مرّة بن سعد بن ذبيان وأخذ سباءً نسوة من غطفان ، منهن عقرب بنت النابغة ، فلما علم أنّها ابنة النابغة أطلق كلّ أسير من بني مرّة من أجل النابغة ،وردّ سباءهم ، فقال النابغة يمدحه وهو يعتذر عن مدحه ؛ لأنّه سوقة ؛ بيد أنّ معروفه أوجب عليه مدحه: (٦٧)

فَلَا بُدَّ مِنْ عَوْجَاءَ تَهْوِي بِـراكِبٍ الى ابْنِ الْجُلاحِ سَيْرُها اللَّيْلَ قَاصِدِ
تَخُبُّ الـى النُّعْمَانِ حَتّـى تَنَالَهُ فِدًى لَّكَ مِنْ رَبٍّ طَرِيْفِي وَتَالِدِي
فَسَكَنْتَ نَفْسِي بَعْدَمَا طَارَ رُوحُـها وَالْبَسْتَنِي نُعْمَـى وَلَسْتُ بِشَاهِدِ
وَكُنْتُ امْرَءاً لَا أَمْدَحُ الدَّهْرَ سُوقَـةً فَلَسْتُ عَلَـى خَيْرٍ أَتَاكَ بِحَاسِدِ
سَبَقْتَ الرِّجَالَ الْبَاهِشِيْنَ الى الْعُلَى كَسَبْقِ الْجَوَادِ اصْطَادَ قَبْلَ الطَّـوَارِدِ
عَلَـــــوْتَ مَعَدًّا نَائِلاً وَنِكَايَـةً فَأَنْتَ لِغَيْثِ الْحَمْدِ أَوَّلُ رَائِدِ

فكان مدحه شكراً له على صنيعه ، وإثباتاً لحقٍّ له ، وحفظاً لهذا الحقّ من الضياع ، والنعمان بن جبلة بفعله هذا مارس على النابغة ما يسمّى في علم النفس الإجتماعي بالتأثير الإجتماعي المعياري الذي يقوم ((على أساس حاجتنا الى قبولنا ، ورغبتنا في أنْ نترك انطباعاً إيجابيّاً لديهم . فقد نمتثل لنكسب القبول الإجتماعي ... ولنتجنب النبذ . وقد نوافق الآخرين لأنهم يمتلكون القدرة على مكافأتنا أو عقابنا ،وعلى قبولنا أو نبذنا))(٦٨)،فالنعمان حاول حقّاً أنْ يكون مقبولاً عند النابغة ، وأنْ يترك في نفسه أثراً طيباً عنه ، وأنْ يخبر النابغة أنّه في فعله هذا يوافق ما قام ويقوم به سادة القوم وأشرافهم في اطلاقهم الأسرى والسبايا، وأنّه يستحق المكافأة والحمد والثناء، وقد نجح في ذلك وأجبر النابغة على مدحه .

وبهذا الفهم والإدارك شكر عامر بن الظرب العدواني قومه قائلاً: (٦٩)

شَكَرْتُ لَهُمْ آلاءَهُمْ وَبَلاءَهمْ وَمَا ضَاعَ مَعْرُوفٌ يُكَافِئُهُ شُكْرُ

ويمكن القول إنَّ المجتمع الجاهليّ قد آمن بقيمة الكرم إيماناً مطلقاً ، وخضع لها بوصفها ضابطاً اجتماعياً خضوعاً تاماً ؛ حتى لم يعد بعض أفراده يطلب بكرم ثواباً ، بل عدّ طلب الثواب على العطاء تكديراً لهذا العطاء ، وهذا ونوع من الإمتثال للضوابط كما يراه علم النفس الإجتماعي هو الإمتثال الذي لاتكون دوافعه التحقق من صدق الرؤية للواقع المادي ، ولا الحاجة الى كسب القبول الإجتماعي ، وتجنب عدم القبول ، إنَّما الدافع المهم هو التمسك بمعيار جماعة يشعر المرء بالإنتماء اليهم ، ويعمل أعضاء هذه الجماعة كمصدر معلومات له بشأن المعيار المناسب لهذه الجماعة .(٧٠)

وعلى وفق هذه الرؤية كان هدف بعض كرماء الجاهلية من كرمهم هو الرغبة في الإنتماء الى طبقة الكرماء من الناس ، والرغبة في التميّز عن أعضائها بتخليهم عن طلب الثواب والمكافأة وترك أمر ذلك لأبناء المجتمع في تقييم فعلهم القيميّ ، وفي مثل هذا يقول همّام ابن رياح بن يربوع التميمي:(٧١)

وَإذا أَرَدْتُ ثَوَابَ مَا أَعْطَيْتُهُ فَكَفى بِذَاكَ لِنَائِلٍ تَكْدِيْرا

وفي إطارهذه العلاقة الجدلية التي أساسها المنفعة المتبادلة بين العاطي (المكرم) والآخذ (المادح)؛ نفهم معنى قولنا : إنّ الجود بالمال كان على وفق تحقيق جوانب إنسانية في إطار اجتماعي ، وعلى وفق تحقيق مكاسب ذاتية تتمثل في إعتراف الآخر بوجوده ، وبكونه امرءاً متميّزاً عن الآخرين ، وهذا الإعتراف يتحقق بحمد الكريم والثناء عليه ، فالكريم إنّما يشتري بعطائه هذا الحمد الذي نجده في مديح الشعراء.

ولقد سعى كذلك الجاهليّ لتحصيل هذا الحمد الذي رآه حقّاً مكتسباً من خلال ما يقدم من فعل بموجب القيمة ، وبدا هذا السعيّ واضحاً في فخر مالك بن حريم الهمدانيّ حيث يقول : (٧٢)

وَرِبْعِيٍّ نَحَرْتُ عَلَى ثَلَاثٍ لِحَمْدٍ ثَلَاثَةٍ مِنْ بَعْدِ حِيْنِ
فَرَاحُوا حَامِدِيْنَ وَرُحْنَ بُجَّاً فَلَمْ أَحْفِلْ لِهَرْهَرَةِ الحَنِيْنِ

ومن خلال الإصرار على التضحية في سبيله ، كما في قول كلدة بن عبد بن مرارة بن سواءة الأسدي : (٧٣)

وَإنْ يَكُنِ الْحَمْدُ في بَاذِخٍ مِنَ الْمَجْدِ أَسْلُكْ إليْهِ سَبِيْلَا

وما هذا الإصرار إلّا لأنّ الجاهلي رأى أنَّ الحمدَ هو أفضل أنواع الكسب ، ولابد من التضحية في سبيل تحصيل هذا الكسب ، فكان أولها إكرام الضيف بعد الإتيان به الى البيت ، وبذل تلاد المال ، وهو بذلك إنّما ((يحيي ما يجدي عليه من الثناء والذكر الجميل)) (٧٤) ، ويجذر القيمة ويعمق وجودها في المجتمع ، وبدت هذه الرؤية واضحة في رثاء الخنساء لأخيها صخر ، حيث تقول : (٧٥)

جَمُوعُ الضُّيوفِ الى بَيْتِهِ يَرَى أَفْضَلَ الكَسْبِ أَنْ يُحْمَدَا

غِيَاثُ العَشِيْرَةِ إنْ أَمْحَلُوا يُهِيْنُ التِّلَادَ وَيُحْيي الجَدَا

إنَّ إحساس الجاهلي بقدرته على العطاء ، وبقوة شخصيته ، وامتلاكه الإرث الذي يؤهله لأن يعلن على الملأ تفوقه على الآخر أو أنَّه لايقلّ عنه مكانة ؛ نابع من ثقته بنفسه ، وهذا ما يمكننا من تصنيف الجاهلي ضمن فئة الضبط الداخلي ، التي وصف أفرادها روتر بقوله:((يوجد أفراد يدركون أنَّ أفعالهم وطريقة عملهم ، وخصائصهم الشخصية الدائمة نسبياً تؤثر في شكل معيشتهم وطريقتها ، فهم يعتقدون بأنَّهم أسياد على أقدارهم ، ويتحملون مسؤولية ما يحدث لهم)) (٧٦)؛ ولهذا نجد الجاهليّ يضحي بماله عطاء في سبيل القيمة لمَنْ لايحبه فضلاً عمن يحبه عن رضاً وقبول تامين ، تحقيقاً لفكرة السيادة التي تحدث عنها روتر على الرّغم من الصراع النفسي الذي يعانيه في مثل هذا العطاء القيميّ ، وقد كشف عن مثل هذا الصراع لبيد ابن ربيعة حين قال : (٧٧)

وإنّي لأُعْطِي المَالَ مَنْ لاأَوَدُّهُ وَأَلْبَسُ أَقْوَامَاً عَلَى الشَّنَآنِ

وهذا ما يبين بوضوح أنَّ المعاييرالإجتماعية تعمل على ضبط سلوك الأفراد والجماعات الإجماعية ، وسلطة القيم هي وضع القيود على تصرفات الأفراد والجماعات .

وهذا الأمر المتسم بالتضحية هو ماجعله متوافقاً مع المجتمع ؛ لأنّه خضع لأرادته وضوابطه ، فكان بعدئذ ممتلكاً لأسباب الفخر ؛ ولذلك فخر بأنّه صانع مجد عزيز بدفعه مالا عزيزاً،فصان حسباً عزيزاً، وبذلك فخر الحادرة حين قال : (٧٨)

وَنَقِي بِآمِنِ مَالِنَا أَحْسَابَنا وَنُجِرُّ في الهَيْجَا الرِّمَاحَ وَنَدَّعِي

... ...

وَمُعَرَّضٍ تَغْلِي المَرَاجِلُ تَحْتَه عَجَّلْتُ طِبْخَتَهُ لِرَهْطٍ جُوَّعِ

وَلَدَيَّ أَشْعَثُ بَاذِلٌ لِيَمِيْنِه : قَسَماً لَقَدْ أَنْضَجْتَ ، لَمْ يَتَوَرَّعِ

وهو بهذا منطلق من أنَّ ملكية المال لاتتحقق لصاحبها إلّا إذا افادته ثناءً وصنعت له مجداً ، كما يقول عنترة بن شداد : : (٧٩)

وَلَا مَالَ إلّا مَا أَفَادَكَ نَيْلُهُ ثَنَاءً ، وَلَا مَالَ لِمَنْ مَا لَهُ مَجْدُ

وما هذا المجد والحمد الّا ذخيرة الجاهلي التي يدّخرها ليثبت ذاته ووجوده في محيطه ، ولاسيما بين الأشراف والسادة من أكْفائه ونظرائه،وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بدّ إذنْ من تنمية المجد والحمد، وهذا ماكان طرفة على سبيل المثال حريصاً على تحقيقه،حين قال مفتخراً : (٨٠)

وَالْمَجْدُ تُنْمِيْه وَتُتْلِدُهُ وَالْحَمْدُ في الأَكْفَاءِ تَدَّخِرُه

وبسبب من هذا الفهم جعل الجاهلي قيمة الكرم وسيلة من وسائل الحفاظ على العرض والحسب ؛ وأعدّها لوظيفة أكبر وأعظم ألا وهي ملاقاة الرجال من

الأعداء،إذ كانت تعدّ دفاعات معنوية تمكّنه من المصادمة والإحتكاك وخوض المعارك المادية والمعنوية قتالاًوقولاً،وهذا ما نجده في قول المخبل السعدي:(٨١)

إذا أنْتَ عَادَيْتَ الرِّجَالَ فَلاقِهِمْ وَعِرْضُكَ عَنْ غِبِّ الأمورِ سَلِيمُ

وهذه العلاقة الجدلية بين قيمة الكرم وبين القيمة الإجتماعية المتحصلة بسبب الكرم جعلت الجاهلي يفخر بأنّ خير ماله هو المال الذي يعطيه وليس الذي يبقيه ؛ لأنّ خير المال كما يرى هو الذي يكفّ عن أهله الذمّ ، أو الذي يقي سوء المطعم ، مثلما فخر بأنّه سمح اليدين غير متعلل بقسم أو يمين لمنع ماله عن المجتدين ، وبهذا فخر بشر بن أبي خازم قائلاً : (٨٢)

أَلا إنَّ خَيْرَ الْمَالِ مَا كَفَّ أَهْلَهُ عَنِ الذَّمِّ ، أَوْ مَالٌ وَقَى سُوءَ مَطْعَمِ
لِأَمْنَعَ مَالاً مَا حَيِيْتُ بِأُلْوَةٍ سَأَمْنَعُهُ إنْ سَرَّنـي غَيْرَ مُقْسِمِ

إنَّ الذمَّ بالبخل واللوم به وغير ذلك من الألفاظ الدالة عليه إنّما هي من وسائل الضبط المشتركة كما يسمّيها كارل منهايم ، والتي عرّفها بقوله ((إنَّ أبسط وسائل الضبط الإجتماعي هي وسائل الضبط المشتركة التي تتمثل بقيام شخص ما بتأنيب شخص آخر على السلوك الشين الذي قام به . ويعدّ السلوك سلوكاً مشتركاً لأنه لايصل الى نطاق السلطة القانونية التي تمارس مهمة الضبط نيابة عن الجماعة)) (٨٣).

وربما كان الكرم بالمال له دور أكبر يتمثل عند الجاهلي بستر عيوب المرء التي يظهرها بخله؛وهذا ماجعل الجاهلي يعتقد أنّ السخاء غطاء كلِّ عيب، والعيوب تمثل عدم توافق المرء مع قيم المجتمع ، ومن ثم تعني عدم رضا المجتمع عليه،وعدم رضا المجتمع على فعل المرء من وجهة نظر الجاهلي يعني هلاكه ، هذه الرؤية الإجتماعية عرضها طرفة بن العبد في قوله:(٨٤)

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيْعَاً سَخَاؤُهُ
تَغَطَّ بِأَسْبَابِ السَّخَاءِ وَإِنَّنِي أَرَى كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءُ غِطَاؤُهُ
وَلَنْ يَهْلِكَ الإنْسَانُ إلّا إذا أَتَى مِنَ الأَمْرِ ِمَا لَمْ يَرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ

وهكذا بدا تأثير هذه القيمة أمراً لايمكن الفكاك من تأثير أسره على الجاهلي ، فهو قد التزمها وعدّها دستور حياته ، ولم يعد معها بدٌّ من الفخر بإتباعها تعبيراً عن التوافق مع المجتمع ، ومع مايؤمن به،ومَنْ يخرج عن هذه القيمة ويستغني عنها يُستغنى عنه و يهجى أشدّ الهجاء ، وهذا ما وجدناه في شعر قيس بن الخطيم وهو يهجو البخيل ويفتخر بمخالفته نهجه غير المتوافق مع قيم المجتمع،حيث يقول: (٨٥)

وإنِّي لَأَغْنَى النَّاسِ عَنْ مُتَكَلِّفٍ يَرَى النَّاسَ ضُلَّالاً وَلَيْسَ بِمُهْتَدِي
كَثِيْرُ المُنَى بالزَّادِ ، لَاخَيْرَ عِنْدَهُ إذَا جَاعَ يَوْمَاً يَشْتَكِيْهِ ضُحَى الغَدِ
نشا غُمُراً بَوراً شَقِيّاً مُلَعَناً أَلَدُّ كَأَنَّ رأسَهُ رأسُ أَصْيَدِ

وَذِي شِيْمَة عَسْرَاءَ تَسْخَطُ شِيْمَتِي أقولُ لَهُ : دَعْنِي وَنَفْسَكَ أرْشِدِ

إنَّ قيمة الكرم قد ضربت جذورها في أعماق نفوس الجاهليين حتى غدا الإعتراض على التخرق فيها غير مقبول ولا مستساغ ، وبلغ حدّاً وجدنا فيه أنّ المرأة قد تنازلت عن لوم زوجها في الكرم ، وتخرقه في العطاء ، بل مارست دور المساند والمشجع له؛مما خلق إجماعاً أسريّاً على قبول الفعل ، ودافعاً قوياً في سبيل استمراره ، وهذا أمر وإنْ كان قليل الحدوث فهو يؤكد كما يرى كارل منهايم على ((أنّ الفرد الواحد لايستطيع تبديل سياقات وأهداف الجماعة ، ولا يستطيع الإنعزال عنها والوقوف ضدّها . إنّ للجماعة طبيعتها البنيوية الخاصة بها ، وعلاقاتها المتكاملة مع الجماعات الأخرى التي يتكون منها المجتمع)) (٨٦) ويمدنا التاريخ الأدبي بحكايات الكرم تلك ، ومنها حكاية كرم (سالم بن قحفان العنبريّ) ، وكان ((من رؤساء بني العنبر في الجاهلية وكرمائها . وله حكاية مشهورة بالكرم ، إذ أتاه طالبٌ فأعطاه بعيراً ، وقال لامرأته ـ ليلى العنبرية ـ : هاتي حبلاً ، فأتته بحبل ، وربطته ودفعته للطالب . ثمّ جاء طالب آخر فصنع مثل ذلك ، فتكرر هذا الفعل ، فعذلته امرأته وألقت اليه خمارها ، فقال : عليَّ الجمال وعليك الحبال ، ثمَّ قال أبياتاً ، فأجابته :)) (٨٧) قائلةً : (٨٨)

حَلَفْتُ يَمِيْناً يَابْنَ قَحْفَانَ بِالَّذِي تَكَفَّلَ بالأَرْزَاقِ في السَّهْلِ والجَبَلْ
تَزَالُ حِبَالٌ مُحْصِدَاتٌ أَعِدُّهَا لَهَا مَا مَشَى مِنْهَا عَلَى خُفِّهِ جَمَلْ
فَأَعْطِ وَلا تَبْخَلْ لِمَنْ جَاءَ طَالِباً فَعِنْدي لَهَا خُطْمٌ وَقَدْ زَاحَتِ العِلَلْ

وهذا ما يفسر لنا حرص الجاهلي على الكرم بغية تحصيل قيمة الذكر الحسن والصيت الذائع والحمد والثناء عليه الذي يمثل وجهاً من وجوه الرضا ، ومن هنا لم يعدّ اتلاف المال في الحمد مغرماً ، يقول حاتم الطائي : (٨٩)

وعَاذِلَتَيْنِ هَبَّتَا بَعْدَ هَجْعَةٍ تَلُومَانِ مِتْلَافاً مُفِيداً مُلَوَّما
تَلُومَانِ ، لَمَّا غَوَّرَ النَّجْمُ ضَلَّةً فَتًى لايَرَى الإتْلافَ في الحَمْدِ مَغْرَمَا

لأنّ المسألة من وجهة نظر الجاهلي هي مسألة ربح وخسارة ، وهو يرى ابتناء المجد ربحاً والحمد وحسن الثناء وسائل هذا البناء ، وإذن فهو لايرى في شراء الحمد خسارة بل ربحاً عظيماً ؛ لأنّه يمكنه من الفخر الذي يتطاول به على الآخرين والفرح يغمر قلبه نشوة وخيلاء ، ولا يكون هذا الفخر إلا بالسماح والعطاء ، كما يكون هذا الفعل عند الجاهلي نابعاً من فهمه وإدراكه لمصدر الضبط الذي يمتثل له ، والذي بين دوره ومهامه (ووريل وستيل ويل) بقوله : ((إنَّ مصدر الضبط يصف التوقع العام للفرد حول العلاقة بين مجهوده ومهاراته وهدفه في النجاح والتفوق)) (٩٠) ، وفي مثل هذا يقول حاتم الطائي : (٩١)

وَمَنْ يَشْتَري حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ يقولُونَ : هَذا خَاسِرٌ ، وَهْوَ رَابِحُ

... ...

وما الفخر الّا بالسّماح وبالعطا ولاخير في من كان بالبخل فارحُ

وما مصطلح الربح والخاسرة والشراء الّا دلالة على وجود قيمة تبادلية ، ومنفعة مشتركة ، يحقق الكريم العاطي من خلالها منفعة اللذة والمتعة والنشوة ، والإحساس بالتفضل على الآخر ، وبزّه سمة التفوق والتميّز عليه ، ويثبت وجوده كقيمة عليا تمثل القدوة الحسنة للآخر، مثلما يكون الكرم ضريبة يدفعها الكريم لقاء وقاية عرضه وفي حال تقاعسه عنه فإنّه يعرض نفسه لعقوبة التقاعس المتمثلة بهجائه بالبخل وعدم المروءة ، وأمّا المُكْرِمُ المُعْطَى فيحقق منفعة ماديّة حسيّة يسدُّ بها حاجته ، ويكون من الواجب عليه ردّ هذا الجميل معنوياً من خلال مدح الكريم والثناء عليه ، والإقرار بتفوقه عليه وعلى الآخرين أحياناً كرماً ومروءة و...

إنّه يمكن القول : إنَّ المديح والهجاء من لوازم الكرم ، إذ المديح ثواب على الكرم ، والهجاء عقوبة من ينكل عنه ، وأمام مسألة وجوب الكرم طواعية أو كراهية ، يرى الأجواد ضرورة اختيار الكرم طواعية ، مع الإقرار بالمنفعة المتحصلة جرّاءه حيث المحامد التي يحمد بها الكريم ، وهو بذلك إنّما يشتري هذه المحامد ، وله بعدئذ الحقّ انْ يفتخر بها ، وأنْ يباهي بها الأكفاء من أقرانه الكرماء ، ومثل هذه الجدلية نجدها في قول لبيد بن ربيعة العامريّ (٩٢):

أَقِي العِرْضَ بالمَالِ التِّلادِ وأَشْتَري بِهِ الحَمْدَ إنَّ الطَّالِبَ الحَمْدَ مُشْتَري

وَكَمْ مُشْتَرٍ مِنْ مَالِهِ حُسْنَ صِيْتِهِ لِأَيَّامِهِ فِي كُلِّ مَبْدىً وَمَحْضَرِ
أُبَاهِي به الأكفاءَ في كُلِّ مَوطِنٍ وَأَقْضي فُرُوضَ الصَّالِحينَ وَأَقْتَرِي

وإذا كان الحمد مكافأة يقدم للمحمود على فعل يقوم به تشجيعاً له ولغيره على الإستمرارعليه فإنَّ الذمّ عقوبة للمرءعلى فعل يقوم به يُخْرِجُ به صاحبه عن منظومة القيم الإجتماعية التي آمن بها المجتمع؛لذا كان الذمّ هوالصورة القاتمة وكان الحمد الصورة الغرّاء المنيرة،بهذا الإيمان القيميِّ يقول الأجدع الهـــمداني:(٩٣)

رَأَيْتُ الذَّمَّ أَعْبَرَ جَانِبَاهُ وَكَانَ الْحَمْدُ أَبْلَجَ مُسْتَنِيْرَا

ولعل مايخيف الجاهلي من الذمّ هو أنّه يجعله خارج منظومة القيم الإجتماعية ، وهذا ما يجعله عاجزاً عن منافسة الآخر في التميّز والتفرّد في مجال القيم ؛ لذا وجدناه حريصاً على أنْ يجنب نفسه كلَّ عوامل الذّمّ والإنتقاص ، وكان بذل المال أهمّ وسيلة لتحقيق مبدأ التنافس ، ومن هذا الإدراك وجدنا المرقش الأكبر يقول : (٩٤)

أَمْوالُنا نَقِي النُّفُوْسَ بِهَا مِنْ كُلِّ مَا يُذْني إِلَيْهِ الذَّمْ

كما انطلق الجاهلي في توصيفه للكريم من فهم أنَّ قيمة الكرم ليست مجرد عطاء أو رفد يقدمه الكريم ، بل هي التزام خلقيّ واجتماعيّ ينبئ بوجوب التزام سلوك متكامل أخلاقياً وأدبياً بما يتوافق مع قيم المجتمع ومبادئه وعاداته وسلوكه ، إذ عدّ اتصاف المرء بصفة قيمية دون أخرى أمراً لايؤهله لمرتبة الكريم الذي ينال كرامة قومه والآخرين ، ولعلنا نجد هذه الفكرة القيمية عند أحيحة بن الجلاح الأوسي في قوله : (٩٥)

وَكَرِيْمٍ نَالَ الكَرامَةَ مِنَّا وَلَئِيْمٍ ذي نَخْوَةٍ قَدْ أَهَنَّا
ثُمَّ لَمْ يُرْجِعِ الكَلامُ إليْنَا لَوْ تَرَى في الْكَلام أَنْ قَدْ أَذِنَّا

لقد قيّدت منظومة القيم الجاهلي الذي أحاط هـو نفسه بها من خلال إيمانه بها ؛ فلم يعد بإمكانه الخروج على هذه المنظومة ، وأصبحت هذه المنظومة التي أوجدها المجتمع هي الرقيب عليه ، وهي مَنْ يلزمه بوجوب عدم الخروج عليها ، وفي حال تحقق خروجه عليها فإنّها تقضي أمرها بمعاقبته اجتماعياً بوصفه امرءاً متمرداً عليها يستحقّ التعيير والذمَّ والإذلال الإجتماعي الذي ينتقص من كرامته ، ويعدّ في ضوء المفاهيم الإجتماعية والنفسية الحديثة منحرف السلوك (٩)((وما الإنحراف إلا نتيجة لفشل وسائل الضبط الإجتماعي في السيطرة على الدوافع الطبيعية الكامنة عند الإنسان))(٩٧)، بهذه الرؤية يهجو يزيد بن عمرو النَّخَعِيِّ رجلين قائلاً : (٩٨)

فَلَوْلَا الْبُخْلُ إنَّ البُخْلَ عَارٌ أَبَا عَمْرٍو إذاً أَعْجَبْتُمَانِي

نعم هكذا حُكْمُ القيمِ صارمٌ لامراءَ فيه ، ولا مداهنة فيه لمن يجرؤ على المساس بها ، أيّاً كان وحيثما كان ؛ لأنه عندئذ يعرّض نفسه للعقاب المجتمعيّ ، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سُلمى : (٩٩)

إنَّ البَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كانَ وَلـ ـكِنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ

ويقول حاتم الطائيّ : (١٠٠)

لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي البَطْنَ والزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمَاً أنْ يُقَالَ لَئِيْمُ

وقوله كذلك : (١٠١)

مَتَى مَا يَرَ النَّاسُ الغَنِيَّ ، وَجَارُهُ فَقِيرٌ ، يَقُولُوا : عَاجِزٌ وَجَلِيْدُ

وكان الخوف من اللّوم هو ما دفع بشاعر اسلاميٍّ هو الأشعث بن عبدالحجر ابن عوف ابن الأحوص الى الكرم قائلاً : (١٠٢)

وَمَا عُقِرَتْ بالسَّيْلَحين مَطَيَّتِي وبالقَصْرِ إلَّا خشيةَ أنْ أُعيَّرا

وكذا مدح زهير بن أبي سلمى آل سنان بأنَّهم كانوا يحملون المغارم كي لا يلاموا على تقصير في دفع النائبة قائلاً : (١٠٣)

....

عَظِيمَةُ مَغْرَمٍ أنْ يَحْمِلُوهَا تُهِمُّ النَّاسَ أو أمْرٌ عَظِيْمُ
لِيَنْجُوا من مِلَامَتِها وكانوا إذَا ذُكِرَ العَظَائِمُ لَمْ يُلِيْمُوا

نعم لقد كان من دوافع الكرم خوف الذمّ واللوم والعار وهي قيم عقابية تخيف الجاهلي وترعبه ، وهذه سنّة بشرية أكدها علم الإجتماع ، إذ رأى علماء الإجتماع ((أنَّ الناس يهتمون بالسلطة المعنوية والإعتبارية أكثر من استخدام القوة . وبناءً على ذلك فإنّهم يخشون العقوبات المعنوية – الإعتبارية – الأدبية – الأخلاقية الصادرة عن المجتمع أكثر من العقوبة المادية أو الجسدية الصادرة عن القانون الوضعي)) (١٠٤) .

وأمّا مَنْ خرق القيمة وضَنَّ على ذوي الإستحاق بنواله فقدجعل من نفسه وعرضه غرضاً للسهام وأصبح مقتله مكشوفاً لنبل الرماة ، إذ تنهال عليه لعنات الهجاء ، ومن ذلك الهجاء قول حسان بن ثابت يهجو قبيلة أسْلَم : (١٠٥)

قَدْ عَلِمَتْ أسْلَمُ الأَنْذَالُ أنَّ لَهُمْ جَاراً سَيَقْتُلُهُ في دارِهِ الْجُوعُ

وقول عروة بن الورد لسلمة بن الخُرْ شُب الأنماري : (١٠٦)

وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمُ بِلَيْلٍ دامِسٍ وَلَقَدْ أَتَيْتُ سَرَاتَكُمْ بِنَهَارِ
فَوَجَدْتُكُمْ لِقَحَاً حُبسْنَ بِخُلَّةٍ وَحُبِسْنَ إذْ صُرِّيْنَ،غَيْرَ غِزَارِ
مَنَعُوا الْبِكارَةَ والإفَالَ كِلَيْهِمَا وَلَهُمْ أَضَنُّ بأمِّ كلِّ حِوَارِ

ومايثير انتباه الدّارس أنَّ خرق القيمة لم يكن بالمنع وحسب بل عدّ الجاهلي سوء الكرم ، المتمثل بتواضع الضيافة ، النابع من البخل خرقاً للقيمة ؛ لأنّه رأى فيها - الضيافة ـ تحايلاً ومراوغة على هذه القيمة ؛ وما القيام بهذه الضيافة إلّا بغية سدَّ الذرائع ، وقطع الطريق أمام المجتمع من أنْ يهجى بالبخل ، فأوقعه فعله هذا في شرك الهجاء وحبائله ، فهجيَ بأقسى الهجاء وأشدّه ، إذْ وصف صاحب هذا النوع من القرى بـ (الخبيث) وأنّه (بادي الشراة والغدر) وقراه (قرى مفلس) ، وما فعل هذا الخبيث فعلته هذه إلّا لأنه توهم عدم افتضاح أمره عند غير ضيفه ، وهيهات ذلك، فهذا فعل تطير به الأخبار ، وتلوكه ألسنة العامة والخاصة ، ومن ذلك الهجاء قول أمّ الضَّحّاك الضَّبابيَّة الشاعرة الجاهلية وهي تهجو مضيِّفها : (١٠٧)

سَرَتْ بِيَ فَتْلاءُ الذِّراعَيْنِ حُرَّةٌ الى ضَوْءِ نارٍ ، بَيْنَ أوْقَحَ والغَرِّ
سَرَتْ مَا سَرَتْ مِنْ لَيْلِهَا ثمّ عَرَّسَتْ الى كُلَفِيٍّ ، لَايُضِيْفُ ولا يَقْرِي
قَعَدْتُ طَوِيْلاً ثمّ جِئْتُ بِمَدْقَةٍ كَمَاءِ السَّلا بَعْدَ التَّبَرُّضِ والنَّزْرِ
فَقُلْتُ اهْرَقْنْهَا ياخَبِيْثُ ، فَإنَّهَا قِرَى مُفْلِسٍ بادي الشَّرَارَةِ واالغَدْرِ
إذا بتَّ بالنَّضْرِيِّ لَيْلاً ، فَقُلْ لَهُ تَأمَّلْ أَو انْظُرْ مَا قِرَاكَ الَّذِي تَقْرِي
أَرَأْسُ حِمَارٍ أمْ فَرَاسِنُ مِيْتَةٍ وَكُلٌّ بِزَعْمٍ أنَّ غَيْرَكَ لا يدري ؟

والمتأمل في البيتين الأخيرين يجد روح الإستهزاء واضحة بهذا القرى ، وقد جُسِّدَ بـ (رأس الحمار) و(فراسن ميتة) ، وهذا الإستهزاء ارتبط بعقوبة خفيفة من عقوبات الضوابط الإجتماعية التي تقع دون الغرامة والسجن والإعدام على حدٍّ تعبير كارل منهايم ((... الضوابط المختلفة هي ضوابط مربوطة بعدد من العقوبات التي قد تكون بعضها خفيفة وبعضها الأخر ثقيلة ومؤلمة . فالعقوبات الخفيفة هي الضحك والإستهزاء أو لوم المقصر...)) (١٠٨).

ونتساءل ألمْ يكن الجاهلي يعلم أنَّ ضيفه خير مِنْ ينقل عنه التزامه بحقَّ الضيافة أوإخلاله بهذا الحقّ ؟ نقول : إنّه يعلم ذلك يقيناً ، ويعلم أنّ تجنب الهجاء وتحصيل الحمد لايكون بعطاء نزر قليل ، ينبئ عن شحٍّ نفس ، يقول ابن مقبل : (١٠٩)

لايُحْمِدُ النّاسَ بالشَّيءِ القَلِيْلِ وَلَا يُهْدَى لَهُ الذّمُّ مِنْ ضَيْفٍ وَلَاجَارِ

ولذلك كان من حقه أنْ يفتخر بإكرامه الضيف والنزيل ، وأنْ يفخر كذلك بمبيته جائعاً لتقديمهما على نفسه ، وبذا فخر ذو الإصبع العدواني : (١١٠)

أُكْرِمُ الضَّيْفَ والنَّزِيْلَ وإنْ بِتْـ.....تُ خَمِيْصاً يَضُمُّ بَعْضِيَ بَعْضِي

وقد أكَّد بشر بن أبي خازم الأسدي حقيقة نقل الضيف والسائل طبيعة ما يلاقيانه من كرم حين هجا أوس بن حارثة بن لأم الطائي : (١١١)

إنَّكَ ياأوْسُ اللئيمُ مَحْتِدُهْ

... ...

إذا أتاهُ سَائِلٌ لايَحْمَدُهْ

وقد كان حمد السائل مكرمة ما بعدها مكرمة ، وعزّ مابعده عزّ ، إنّه وسيلة تشييد حسب أصيل عند الجاهلي لذلك جدّ في تحصيله ودعا الى بلوغ ذروته ، ومن هذه الدعوات دعوة ذي الإصبع العدواني : (١١٢)

وَابْسُطْ يَمِيْنَكَ بالنَّدَى وَامْدُدْ لَهَا بَاعَاً طَوِيْلا
وَابْسُطْ يَدَيْكَ بِمَا مَلَكـ تَ وَشَيِّدِ الحَسَبَ الأثِيْلا

وكأنّي بابن مقبل لبّى دعوة ذي الإصبع العدواني حين فخر قائلاً : (١١٣)

تَرَكْتُ الخَنَا لَسْتُ مِنْ أهْلِهِ وَسَمَّنتُ في الحَمْدِ حَتَّى سَمِنْ
بِوَفْرِي العَشِيْرَةَ أعْراضَهَا وَخَلْعي عِذَارَ الخَطِيْبِ اللَّسِنْ
وَجَوْفَاءَ يَجْنَحُ فِيْهَا الضَّرِيكُ لِحِيْنِ الشّتَاءِ جُنُوح العَرِنْ

وقد رسم لنا خداش بن زهير صورة لافتة لسيّد من سادات قومه وقد مدحه بالجود حين قرن كرمه وجوده ـ وإنْ كان ذا هدف إجتماعيّ يخضع لضوابط إجتماعية ـ بالواقع الحقيقي ، والفعل المتحقق ، على سبيل الحقيقة لاالمجاز ، ليكشف عن نبل نفس الجاهلي المتسامية عطاء بغض النظر عن

المردود الإجتماعي الذي لايخفي رغبته في الحصول عليه ، وقد تعانقت هذه النفوس المانحة والممنوحة واستوت في توافق مطلق في الشعور بالزهو من كرم هذا السيّد ، فأصبح الكلّ واحداً في الإفادة من مردود الجواد ، حسب إعتقاد خداش حين قال : (١١٤)

النَّاسُ تَحْتَكَ أقْدَامٌ وَأَنْتَ لَهُمْ رَأْسٌ فَكَيْفَ يُسَوَّى الرَّأسُ والْقَدَمُ
إنَّا لَنَعْلَمُ أنَّا مَا بَقِيْتَ لَنَا فِيْنَا السَّمَاحُ وَفِيْنَا الْجُوْدُ والْكَرَمُ
وَحَسْبُنَا مِنْ ثَنَاءِ المَادِحِيْنَ إذا أَثْنُوا عَلَيْكَ بِأنْ يَثْنُوا بِمَا عَلِمُوا

أمّا لبيد بن ربيعة فقد جعل سادة قومه نتيجة فعلهم في الكرم ربيعاً للمجاور فيهم وللمرملات، ليقول: إنَّ هناك علاقة منفعة معنوية ومادية بين السيّد والمَسُوْدِ ، بين المعطي والآخذ ، وتوازن هذه العلاقة على وفق هذه المنفعة يمثل ضابطاً اجتماعيّاً يوحّد بين الطرفين بصورة متماسكة ، إذ يصبح الطرفان فيها مكوناً واحداً لاانفصام بينهما ، وقد تمثل هذا في قوله : (١١٥)

فَبَنَى لَنَا بَيْتاً رَفِيْعاً سَمْكُهُ فَسَمَا إلَيْـهِ كَهْلُهَا وَغُلَامُهَا
وَهُمُ السُّعَاةُ إذا العَشِيْرَةُ أُفْظِعَتْ وَهُـمُ فَوارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا
وَهُـمُ رَبِيْعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيْهِمُ وَالْمُرْمَلَاتُ إذا تَطَاوَلَ عَامُهَا
وَهُـمُ الْعَشِيْرَةُ إنْ يُبَطَّئْ حَاسِدٌ أوْ أنْ يَمِيْلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِئَامُهَا

وقد عبّر عن مثل هذا التصور العُرْيانُ الطائيُّ وهو يمدح حاتماً الطائيَّ قائلاً : (١١٦)

إنِّي الى حَاتِمٍ رَحَلْتُ وَلَمْ يُدْعَ الى العُرْفِ مِثْلُه أَحَدُ
الواعِدُ الوَعْدَ والوَفِيُّ بِـهِ إذْ لا يَفِي مَعْشَرٌ بِمَا وَعَدُوا
والواهِبُ الخَيْلَ والوَلائِدَ والـ ـرَّبْرَبَ فيها الأوانِسُ والخُرُدُ

وقد طمأن الحطيأة الكرماء أنَّ فعل الخير لن يذهب سدى ؛ إذ لابدّ من مجازاتهم وإثابتهم ومكافأتهم؛لأنَّ المروءة تستدعي ذلك، يقول الحطيأة : (١١٧)

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لايَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لايَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنّاسِ

ومَنْ لايمتثل من البخلاء للكرم فلابُدَّ من معاقبته ، وتوبيخه ، وتأنيبه ، بسوء الثناء ، مثلما نجد الدعوة الى عدم إقرائه إذا نزل ضيفاً، وفي ذلك يقول حاتم الطائي : (١١٨)

إنَّ البَخِيلَ إذا مَا مَاتَ يَتْبَعُهُ سُوءُ الثَّناءِ وَيَحْوِي الوارِثُ الإبِلا

... ...
لَيْتَ البَخِيْلَ يَرَاهُ النّاسُ كُلُّهُمُ كَمَا يَرَاهُمْ فَلا يُقْرَى إذا نَزَلا

نعم إنّه الجزاء العرفيّ والعادة ، وهذا الجزاء العرفي من آليات المجتمع الضبطيّة التي ((تقوم بضبط سلوك كلّ مَنْ يريد الإنحراف عن قواعده وقوانينه

وأعرافه ، وتكافيء كلَّ مَنْ يتماثل معها)) (١١٩) من أجل استمرار قيمة الكرم ، والمرءُ مرهون بما يقّدم ، ... كما يقول حاتم الطائيّ : (١٢٠)

وإنّي لَمَجْزِيٌّ بِمَا أنَا كَاسِبٌ وَكُلُّ امرئٍ رَهْنٌ بما هو مُتْلِفُ

فالمُجازاة بذلك ترسخ قيمة الكرم حفاظاً على حياة الفقراء، ودفعاً لحالة البؤس التي يعيشونها كما أنَّها وسيلة لتشجيع الكرماء على انتهاج السبيل القيميّ المؤدي الى استقرارالمجتمع ، وتآلف أبنائه وتوادّهم ، بشكل توجيهيٍّ لافت للنظر ، أنظر الى قول الحطيأة وهو يمدح بغيضاً ويهجو الزبرقان : (١٢١)

واللهِ مَا مَعْشَرٌ لامُوا امْرِأً جُنُبَاً مِنْ آلِ لَأْيِ بْنِ شَمَّاسِ بأكياسِ

... ...

لَقَدْ مَرَيْتُكُمُ لَوْ أَنَّ دِرَّتَكُمْ يَوْماً يَجِئُ بها مَسْحِي وَإبْسَاسِي
وَقَدْ مَدَحْتُكُمُ عَمْداً لِأُرْشِدَكُمْ كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ مَتْحِي وَإمْراسِي
وَقَدْ نَظَرْتُكُمُ إعْشَاءَ صَادِرَةٍ لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَنْسَاسِي
فَمَا مَلَكْتُ بِأنْ كَانَتْ نُفُوسُكُمُ كَفَارِكٍ كَرِهَتْ ثَوْبِي وَإلْبَاسِي
حَتَّى إذا مَا بَدَا لِي غَيْبُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِي فِيْكُمُ آسِ
أَزْمَعْتُ ياساً مُبِيْناً مِنْ نَوَالِكُمُ وَلَنْ تَرَى طَارِداً لِلْحُرِّ كَاليَاسِ
مَا كَانَ ذَنْبُ بَغِيْضٍ أنْ رَأى رَجُلاً ذَا فَاقَةٍ عَاشَ فِي مُسْتَوْعِرٍ شاسِ
جَاراً لِقَوْمٍ أطَالُوا هُوْنَ مَنْزِلِهِ وَغَادَرُوهُ مُقِيْماً بينَ أَرْمَاسِ
مَلُّوا قِرَاهُ وَهَرَّتْهُ كِلَابُهُمُ وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأضْرَاسِ

إنَّ الفعل القيميّ المؤيد بالمديح الذي يتضمن الثناء على مَنْ يقوم به حمداً وشكراً ، ويتضمن كذلك دور المرشد الى الكرم كما يقول الحطيأة ، يكون جُنّة لصاحبه من كلِّ ذمٍّ أو انتقاص ، وقد يكون جنة كذلك لذريته ، كما يرى الحطيأة في هجاء الزبرقان بن بدر :(١٢٢)

إنِّي نَهَانِي أنْ أَعِيْـ ـبَكَ مَاجِدُ الجَدَّيْنِ فاخرْ
هُوَ مَدَّ بَيْتَ الْمَجْدِ حَيْـ ـثُ بَنَاهُ شَمَّاسٌ وَعَامِرْ
فَجَزَى الإلهُ أَخِي بَغِيْـ ـضَاً خَيْرَ مَا يُجْزَى الْمُعَاشِرْ

وإزاء هذا الضابط الإجتماعيّ يذعن الجاهلي لشعيرة الكرم ، وعلى قدر همته يكون العطاء ، إمّا مقتصد فيه وإمّا متخرق يعطي ماله كلَّ مَنْ جاء طالباً ، ويجعل ماله وقفاً لكل قرض وفرض ، وما ذاك الّا صيانة للعرض ، واتقاءً للئيمٍ ، إذا أُكرِمَ رُدَّ عن العرض ، كما أنَّ هذا السلوك في العطاء هو فعل الجواد في كلِّ محفلٍ ومجمع ، هذا الفعل الذي تتناقله الألسن ، وتطير به الأخبار في سائر الأرض ، وهذه الشهرة هي الضابط الإجتماعي الذي يديم شعيرة الكرم ، وحاتم الطائي خير مَنْ أدرك كنه فلسفة هذه القيمة حين افتخر قائلاً : (١٢٣)

سَأَمْنَحُ مَالي كُلَّ مَنْ جَاءَ طَالِباً وَأَجْعَلُهُ وَقْفاً عَلَى القَرْضِ والفَرْضِ
أَصُونُ بِهِ عِرْضَ الْكِرَامِ،وَأَتَّقِي لَئِيْمَاً إذا أَكْرَمْتُهُ رَدَّ عَنْ عِرْضِي
وهذا فعال الجود في كلِّ محفلٍ تُتِيْرُ به ألأخبارُ في سائر الأرضِ

وهذا يدل على تأصل قيمة الكرم في نفس حاتم وفي سلوكه حدَّ اتلاف جميع ماله ، وتخرقه في العطاء هو ما دعاه الى مطالبة الأخر لإعانته على جوده ، حيث يقول : (١٢٤)

ألا سَبِيْلَ الى مَالٍ يُعَارِضُنِي كَمَا يُعَارِضُ مَاءُ الأَبْطَحِ الجَارِي
أَلَا أُعَانُ عَلَى جُودِي بِمَيْسَرَةٍ فَلَا يَرُدُّ نَدَى كفَّيَّ إقْتَارِي

وما هذا الكرم الطاغي عند حاتم الطائي وغيره إلا رغبة منه في التواصل مع الآخر ، واثباتاً لوجود الذات ، مثلما هو نوع من أنواع الإمتثال لمعايير وقيم الزم المجتمع نفسه بها طواعية تلبية لحاجات انسانية واجتماعية ، مثلما الزم نفسه كذلك بمكافأة الكريم مكافأة معنوية تضعه في سما المعالي محلقاً فخراً بفعله ، وإحساساً بعظم موقعه اجتماعياً في محيطه ؛ وبذا الفعل يمكن القول إنّ الإلتزام بالقيمة الإيجابية هو نتيجة للضوابط الإجتماعية التي يمتثل الأفراد لمعاييرها طواعية رغبة منهم في تحصيل القبول ؛ فتكون مكافأتهم الإشادة بذكرهم .

لقد استطاع الجاهليّ تشخيص عوامل استمرارية القيم من خلال تحفيز وتفعيل عوامل العطاء والبذل وأولها المكافأة المادية والمعنوية ، وقد أكد على الجانب المعنوي لإدراكه أنْ لاعطاء ولا إكرام بلا مقابل ، وما يحصله الكريم مقابل كرمه هو الحمد والثناء ، والذكر الحسن ، وشيوع الصيت ، الذي يخلّد صاحبه في سجل الأشراف من الأجواد والسادة .

إنَّ هذا الحمد والثناء مثّل محبة محيط الجاهلي ومجتمعه له ، وهذه المحبة تمثّل آلية ضبطيّة لسلوكه ، سمّاها بعضهم بالضابط العرفاني ، وتتجسَّد في استجابة المحبوب الإيجابية لمن يحبه ، وفي هذا يرى دارسو علم الإجتماع أنّه ((عندما يشعر الفرد بمحبة وتقدير واحتضان الآخرين فإن تلك المحبة تمثل آلية ضبطية لسلوكه ؛ مما تولد عنده التزاماً أدبياً ملؤه الوفاء لهم ، والإستجابة لنداءاتها وطلباتها وضغوطاتها كسلوك تبادليٍّ لمحبتهم وتقديرهم واحتضانهم له ، وإننا نستطيع أنْ نسمّي هذا بالضابط العرفاني ، أيّ العرفان بجميل الإحتضان الذي له قوة وجدانية وأدبية وأخلاقية)) (١٢٥) .

وقد جسّدَ حاتم الطائي هذا الضابط المتمثل بالمحبة المتولدة بينه وبين قومه بعطائه وبذله لهم ، وبتسييد قومه له ، إذ يقول : (١٢٦)

وَأَجْعَلُ نَفْسِيْ لِلْعَشِيْرَةِ جُنَّةً وَأَحْمِلُ عَنْهُمْ كُلَّ ما ضَاعَ مِنْ ثِقْلِ

وإذ يقول كذلك : (١٢٧)

يَقولُونَ لِيْ : **أَهْلَكْتَ مَالَكَ فَاقْتَصِدْ وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا يَقولُونَ سَيِّدَا**

كما أنّه لايمكن أنْ نغفل عن جانب كبير الأهمية بالنسبة لملتزم قيمة الكرم ألّا وهو الجانب المعنوي المرتبط بنفسه وإحساسه ، فهو بفعله القيميّ يحقق جوانب معنوية تصبُّ كلُّها في تحقيق اللذّة والشعور بالنشوة ؛ وإذاً العلاقة هي علاقة تبادل منفعة ، وهذا أمر طبيعيّ ومنطقيّ ومقبول ، إذ لايمكن تصور وجود علاقة مثالية مطلقة ، فالمعطي بلا مقابل هو الله ، إذ لايشترط العطاء المطلق عنده بالحمد ، بل الحمد يزيد في العطاء عنده ((لئن شكرتم لأزيدنّكم)) (١٢٨)، فهو يرزق العباد جميعاً شاكرهم وجاحدهم ، وفي إطار هذه الفلسفة الجدلية الحياتية نستطيع أنْ نفهم قيمة الكرم ، وينبغي أنْ يكون هذا الفهم في إطار الكرم الإجتماعي الحقيقي الواقعي وليس المثالي الخيالي كما يتصوره كثير من الدارسين أو كما تعرضه كثير من الدراسات الأدبية التي تظهر الكريم معطاءً بلا قيود ، فنحن نقدم قيمة الكرم في إطارها الأجتماعي الحقيقي مع بيان ما يحيط بها من عوامل مختلفة ، وبذلك نحاول رسم صورة واقعية لمجتمع واقعي يتنازع نفوسَ أبنائه الخيرُ والشرُّ ، ويمسّ بعضَ أفراده غائلةُ الفقر ، ويعيش بعضُه الآخر غمرة الغنى ، وقد أوضح الحطيأة هذه الفكرة في إطار مدحه لابن شماس : (١٢٩)

فَمَا زَالَتِ الْوَجْنَاءُ تَجْرِي ضُفُورُهَا إِلَيْكَ ابْنَ شَمَّاسٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
تَزُورُ امْرَأً يُؤْتِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ المَحَامِدِ يُحْمَدِ
يَرَى البُخْلَ لا يُبْقِي عَلَى الْمَرْءِ مَالَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الشُّحَ غَيْرُ مُخَلِّدِ

و في إطار قوله في عتيبة بن النَّهاس العجليّ حين منعه العطاء ، ثم لامه رجل من قومه فأمر برده ، وقال لغلامه:إذهب به الى السوق فلا يطلبنّ شيئاً ولا يشيرنَّ الى شئ ولا يسومنَّ به إلا اشتريته ، فلم يشر إلّا الى الأكسية والكرابيس الغلاظ ... فقال فـــي ذلك : (١٣٠)

سُئِلْتَ فَلَمْ تَبْخَلْ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلاً فَسَيَّانَ لَاذَمٌّ عَلَيْكَ وَلَاحَمْدُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ لَاالْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فَتُعْطِي،وَقَدْ يُعْدِي عَلَى الْنائِلِ الْوُجْدُ

لقد كان الجاهلي مدركاً للدور الإجتماعي الذي يمارسه ، والذي يرى علماء الإجتماع أنّه ((لابدّ أنْ يتضمن حقوقاً وواجبات محددة : فالواجبات هي تلك التصرفات أو السلوكيات المتوقعة ، أي الوسائل المؤدية الى الهدف . أما الحقوق فهي الإمتيازات والمكافآت التي سيحصل عليها شاغل المركز إنْ تصرف على وفق ما هو متوقع منه. بمعنى أنها هدف تلك السلوكيات المتوقعة من الآخرين)) (١٣١) .

لقد بلغت قيمة الكرم من نفس الجاهلي مبلغاً لم يعد معه التنصل أو الإبتعاد عنه ممكناً ، فهو قد أخذ من نفسه موقعاً ، ومن روحه شغفاً؛حتى عدّه لازمة من لوازم الشرف ، وصورة من صور المجد ، وقد علل أحد الدارسين ذلك

بقوله:-وهو يبين دلالة كلمة الكرم-((إنَّ دلالة هذه الكلمة ترتفع في المخيال العربي الى أسمى درجة لتحمل معنى الشرف ، فوصف الشيء بكونه كريماً لايعني فقط أنّه يبذل ويعطي ، بل يعني أيضاً أنّه شريف وذو قيمة غالية)) (١٣٢) وبغية استمرار هذه القيمة أدخلها الجاهليّ في وصاياه التي كانت ملزمة له ، إذ نجد في وصايا الشعراء هذه ما يشير الى مسألة تعليم الأسرة أبناءها معايير وضوابط المجتمع ، إذ يذكر الشعراء خلال فخرهم بقيمة الكرم أنَّ امتثالهم لها لم يكن مستحدثاً أو مبتدعاً إنّما هو ثمرة تعليم الآباء والأهل لهم إياها ، وما التزامهم بها إلا تعبير عن الرغبة في الإستمرار على منهج أسلافهم في التزام هذه القيمة ، ولعلنا نجد في صورة التزام الجاهلي بها صدق ما نذهب اليه ، فهذه حبيبة بنت عبد العزّى العوراء تفتخر باتباعها وصيّة جدّها في الكرم قائلة : (١٣٣)

إنّي وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ الى مِنَىً ... بِجَنُوبِ مَكَّةَ هَدْيُهُنَّ مُقَلَّدُ
أُولِي عَلَى هُلْكِ الطَّعَامِ أَلِيَّةً ... أَبَداً وَلَكِنّي أَبِيْنُ وَأَنْشُدُ
وَصَّى بِهَا جَدِّي وَعَلَّمَنِي أَبِي ... نَفْضَ الوِعَاءِ ، وَكُلُّ زَادٍ يَنْفَدُ

ومثل حبيبة افتخر مالك بن حريم الهمدانيّ باتباعه وصية أبيه قائلاً : (١٣٤)

أَجُودُ عَلَى الْعَافِي وَأَحْذَرُ ذَمَّهُ ... إذا ضَنَّ بالْمَعْرُوفِ كُلُّ بَخِيْلِ
بِذَلِكَ أَوْصَانِي حَرِيْمُ بْنُ مَالِكٍ ... بِأَنَّ قَلِيْلَ الذَّمِّ غَيْرُ قَلِيْلِ

ولبيد بن ربيعة يوصي بالكرم ، ويصفه بأنّه مدرار ، والدر من رموز الخصب والولادة ، ويدعو اليه ؛ لأنّه يجلب للكريم الحمد والثناء ، ويمنحه السؤدد وعلو المكانة ، فالكريم هو الرابح أبداً ، ويبدو هذا الربح أكثر وضوحاً بعد موت الأنسان ودفنه ، حين ينفضّ النّاس عنه وهم له حامدون ، وهذا الحمد والثناء هو المكرمة التي سعى الى الفوز بها الكريم ، وعلى الآخر أنْ يعتبر بهذا ، ويلتزم بالكرم ، يقول لبيد : (١٣٥)

وَابْذُلْ سَنَامَ الْقِدْرِ إنْ ... نَ سِوَاءَهَا دُهْمَاً وَجُوْنَا
ذَا الْقِدْرِ إنْ نَضَجَتْ وَعَجْـ ... ـجِلْ قَبْلَـهُ مَا يَشْتَوِيْنَا
إنَّ الْقُدُوْرَ لَوَاقِحٌ ... يُحْلَبْنَ أَمْثَلَ مَا رُعِيْنَا
وَإِذَا دَفَنْتَ أَبَاكَ فَاجْـ ... ـعَلْ فَوْقَهُ خَشَبَاً وَطِيْنَا
وَصَفَائِحَاً صُمَّاً رَوَا ... سِيْهَا يُسَدَّدْنَ الْغُضُونَا
لِيَقِيْنَ وَجْهَ المَرْءِ سَفْـ ... ـسَافَ التُّرَابِ وَلَنْ يَقِيْنَا
ثُمّ اعْتَبِرْ بِثَنَاءِ رَهْـ ... ـطِكَ إذْ ثَوَى جَدَثَاً جَنِيْنَا
وَتَرَاجَعُوا غُبْرَ المَرَا ... فِقِ مِنْ أَخِيْهِمْ يَائِسِيْنَا
تِلْكَ الْمَكَارِمُ إنْ حَفِظْـ ... ـتَ فَلَنْ تُرَى أَبَداً غَبِيْنَا

إنَّ الوصايا بما لايقبل الشك نوع من أنواع التنشئة الإجتماعية ، ونوع من أنواع التدريب القيمي لأفراد المجتمع على الإتصاف بالقيم والإلتزام بها ؛ كي تتمّ

عملية امتثال المرء لهذه القيم التي لاشك في أنّها قيم جمعية ، وفي مثل هذه الرؤية يقول (لازويل) : ((إنَّ الفرد يدرب جسمه وعقله على تقبل الرموزالجمعية من خلال عمليات التنشئة الإجتماعية التي يتلقاها من الأسرة وبقية جماعات ومؤسسات المجتمع)) (١٣٦) .

وإذا كانت الوصايا ثمرة التنشئة الأسرية والإجتماعية فإنّها تعدّ من الضوابط الداخلية ، وهي ضوابط تتكون كما يرى علماء الإجتماع ((من خلال تدوين المعايير في ضمير الفرد ومشاعره عبر التنشئة الأسرية)) (١٣٧) و((يحدث الإنضباط الداخلي عندما يقبل الأفراد معايير الجماعة أو المجتمع على أنّها تمثل جزءاً من ضمائرهم (ذواتهم) الإجتماعية ، ويعدونها جزءاً من هويتهم الذاتية تغرسها عملية التنشئة الأسرية في بداية مرحلتها لتجعله أحد أوجه ذات الفرد ، لدرجة أنّه عندما يكون بمفرده بعيداً عن أعين الناس ، ولايوجد شخص يراقبه يتصرف حسبها، وملتزماً بها)) (١٣٨) ،ولعلنا نجد في قول المرقش الأكبر(المار الذكر والذي نعيده من باب الإستدلال) صورة لأثر هذا الضبط على الذات ، حين فخر بإقرائه ذئباً عراه على شوائه : (١٣٩)

نَبَذْتُ إلَيْهِ حُزَّةً مِنْ شِوَائِنَا حَيَاءً وَمَا فُحْشِي عَلَى مَنْ أُجَالِسُ

وكيف يُرى الكريم مغبوناً وهو يؤمن بالقيم وبضرورة فعلها ويعلم أنَّ فاعلها يكافأ بالحمد على ما فعل ، ويجزى به ، وهو غاية ما كان يبحث عنه ؛ لذا أصرّ الجاهلي على الإيصاء بالكرم والرفد ، وعدم التعجل في الحصول على المكافأة ؛ لأنّها قادمة لامحالة جزاءً وثناءً ، بهذا الإدراك أوصى زهير بن جناب الكلبي قائلاً : (١٤٠)

إرْفَعْ ضَعِيْفَكَ لا يُحِرْ بِكَ ضُعْفُهُ يَوْماً فَتُدْرِكُهُ عَوَاقِبُ مَا جَنَى
يَجْزِيْكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإنَّ مَنْ أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

ولعل هذا ((الربط بين الخصائص الوراثية للإنسان ومعطيات بيئته الإجتماعية يمكننا من فهم سلوكية الإنسان وعلاقاته الإجتماعية ودرجة تكيفه للمحيط الذي يعيش به)) (١٤١).

وختاماً يمكن القول : كان الجاهليّ مرهف الحسّ ، صادق النّوايا ، قارئاً جيداً لدواخل الذّات ، عارفاً بطبيعتها ، ملمّاً بتداخلاتها ؛ لذا جعل فعله يتناغم مع هذه المعرفة ، وكانت طبيعة كرمه تتمازج فيها الجوانب المادية والنفسية التي أبدع في إخراجها الشعراء ، وهم يرسمون صور الكرم التي تمثل أبهى صور القيم الإنسانية الخالدة التي كانت استجابة لضوابط المجتمع ، وفرصة بحث عنها الجاهليّ ليحقق من خلالها نوازع نفسه الوثّابة نحو السّمو والتفرد والتميّز في المكانة الإجتماعية ، وبذا تداخلت الدوافع والأسباب فرسمت قيمة الكرم .

ومن هنا كانت قيمة الكرم بوصفها ضابطاً اجتماعيّاً تُعَدُّ من ثوابت المجتمع الجاهليّ الأخلاقية والسلوكية والحياتية ؛ لأنَّها مثّلتْ عنده جانباً فكريّاً أوجب عليه السَّيْرَ في هداه ، واقتفاء الأثر في خطاه؛ وَوَضَعَتْ منهجاً يجعل السائرين على سبيل أهدافه يتبوأون ذرى المجد ، ويتخطون ما دون ذلك ، وهم بذلك إنَّما يتجنبون الذَّمَّ ، ويحصلون المحامد ويحوونها .

هوامش البحث :

(١) مصدرالضبط والصحة النفسية وفق الإتجاه السلوكي المعرفي ٦/ج .
(٢) المصدر نفسه ٧/٦.
(٣) ينظر : المصدر نفسه ٦/ج .
(٤) المصدر نفسه ٦ / ٧ .
(٥) نظريات علم الجريمة / ١٩٠ .
(٦) ديوان الحطيأة / ١٠ . الخرج : قرية من قرى اليمامة .النشب : المال القليل .
(٧) المصدر نفسه / ١١.
(٨) المصدر نفسه / ١١- ١٣.
(٩) المصدر نفسه / ١٦ – ١٩. الألْت : النقصان . جار : يعني نفسه .الحسب : يعني عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . قوم جفاة : يعني الزبرقان ورهطه .
(١٠) المصدر نفسه /٣١ .العَمَيان :المشتهي للّبن . قال ابو عمرو: كره الماء عن شهوة اللّبن .
(١١)الضبط الإجتماعي / ٣١.
(١٢) أبحاث في علم الإجتماع /٦٠.
(١٣) الضبط الإجتماعي / ١٧.
(١٤) ديوان حاتم الطائي / ٢٦ – ٢٧.عصل : معوجة ملتوية . النواجذ :الأضراس التي تلي الأنياب ، وفي جنب كلّ ناب ناجذ .
(١٥) نحو علم إجتماع عربي / ٣٢ .
(١٦)شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري / ٦٣.
(١٧) ديوان حاتم الطائي / ٨٢ .
(١٨) كتاب الوحشيات / ٢٥٦ .
(١٩) ديوان شعر الحادرة / ٨٤ – ٨٥ .الخطيطة : أرض بين أرضين مَطِرَتَيْن وقد أخطأها المطر. المحل : الجدب .جَفَتْ :لم تطمئن .المُضاف :المُلْجَأ . الرَّجْل : الرَّجالة .
(٢٠) المرقش الأكبر – أخباره وشعره / ٨٨٩ .
(٢١) شعر الفارعة بنت شداد / ٢٩١ .
(٢٢) ديوان طرفة بن العبد /٧٩ . الجفلى : أنْ يعمّ بدعوته الى الطعام ولايخصّ أحداً دون آخر . الآدِب : الذي يدعو الى المأدبة ، وهي كلّ طعام يدعى اليه . الإنتقار : أنْ يدعو النقرى ، وهي أنْ يخصَّ بدعوته ولا يعمها .
(٢٣) المصدر نفسه /٢٩ .
(٢٤) المصدر نفسه /١٤٥-١٤٦ .قتادة : هو قتادة بن سلمة الحنفي ، وكان من اسخياء العرب ، وبه يضرب المثل في الجود ، وكان يسمى غيث الضريك . الشكم : العوض والجزاء . مرقة

العظم : أي مهازيل . البرم : جمع بُرْمة : وهي قدر من حجارة ، وكانت المرأة تحملها معها ، ترتفق بها ، وتنقع فيها أنكاث الأخبية وتبلها لئلا يتطاير ، وإذا نزلوا واستقروا حُكْنَ ذلك الغزل ، واتخذن الأخبية .

(٢٥) علم الإجتماع النظري /١٨١.

(٢٦) ديوان حاتم الطائي / ٤٦.

(٢٧) المصدر نفسه /٧٧ – ٧٨ .

(٢٨) علم الإجتماع النظري / ١٨٢.

(٢٩) المصدر نفسه /١٨٨.

(٣٠) المصدر نفسه /١٨٢.

(٣١) المصدر نفسه /١٨ .

(٣٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري / ٣١٩ – ٣٢٠ .مغذمر :قال الأصمعي : هو الذي يضرب بعض حقوق الناس في بعض ، فيأخذ من هذا ويعطي هذا .وقال أبو عبيدة: هو الذي لايعطي ولا يردّ . والهضام : الذي يعطي قوماً ويحرم آخرين بتدبير .

(٣٣) ديوان ابن مقبل / ١٢٧ . الجوفاء : الواسعة الجوف . الضريك : البائس . العَرِن : البعير الذي يؤلمه عنقه دائماً .

(٣٤)الأمن الإجتماعي – مقوماته – تقنياته – ارتباطه بالتربية المدنية / ٦٠-٦١

(٣٥) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى / ٢٧٧. مبرِّز : سابق . برّ للإله : عابد له . تعفو : تزيد وتُلْبس وتغطي.

(٣٦) المرقش الأكبر ـ أخباره وشعره / ٨٧٧ .

(٣٧) ديوان الحطيأة / ٢٦٨.يُعْدي : يُعين .الوُجد : اليسار . يقول : يعين على العطاء اليَسَارُمن البخيل .

(٣٨) شرح ديوان عنترة / ٢٦

(٣٩) ديوان شعر الحادرة / ١٠٢. الضريبة : الخليقة ،والطبيعة : السجية . تَهَشَمتَه : استعطفتَه وترضيتَه .

(٤٠) ديوان عروة بن الورد /٩٠. المعتر : الفقير، يأتي للمعروف ولا يسأل .المَجْزر : مكان النحر .

(٤١) المصدر نفسه / ١٠١ .

(٤٢) علم الإجتماع النظري /١٨٨ .

(٤٣)ديوان قيس بن الخطيم / ٤٢. خطّ مئزري : أي جررت ثوبي من الخيلاء .

(٤٤) شعر قيس بن عاصم المنقري / ٥٢ . الخصاصة : الفقر وسوء الحال .

(٤٥) ديوان شعر الحادرة/ ٩٥ .

(٤٦) شعر نهشل بن حَرِّيّ /١١٩ – ١٢٠ .

(٤٧)شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري /٦٦.يقول : احسابنا ضامنة على أنْ نعطي الحقوق . القريان : مجاري الماء الى الرياض، والواحد قريّ.

(٤٨)ديوان حسان بن ثابت ١/ ٧٥.

(٤٩)ديوان الخنساء / ٢٧٧.

(٥٠)ديوان ابن مقبل / ٦٢. باغي العرف : طالب المعروف.

(٥١) المصدر نفسه / ١٨ – ١٩. فجاءتي : نزول الضيف فجأة . الدخيل : الضيف الداخل من غير ميعاد . العضاه : كلّ شجر له شوك .أغبر العضاه: كناية أو دلالة على الجدب وانقطاع الماءعنه . المجلح : الذي رعته الإبل.
(٥٢) ديوان دريد بن الصمة / ٩٦ .
(٥٣) شعر العوراء بنت سبيع / ٢٨٥ .
(٥٤) ديوان دريد بن الصمة / ٨٣ .
(٥٥)ديوان ابن مقبل / ١١٨ .
(٥٦) علم الإجتماع النظري /١٨٧.
(٥٧) شعر هند بنت الخس / ٣٠٨.
(٥٨) مصدر الضبط والصحة النفسية وفق الإتجاه السلوكي المعرفي / د.
(٥٩)ديوان حسان بن ثابت ٧٥/١.
(٦٠) ديوان الأسود بن يعفر / ٣٥ .
(٦١)شعرأمّ الصريح الكنديّة / ٢١٤ .
(٦٢) ديوان علقمة الفحل / ٦٤- ٦٥ .
(٦٣) ديوان الأسود بن يعفر /٥٥.
(٦٤) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي/ ١١٤.
(٦٥) شرح ديوان حسّان بن ثابت ١/ ٢٥ .
(٦٦) .مدخل الى علم النفس الإجتماعي / ١٨- ١٩ .
(٦٧) ديوان النابغة الذبياني بتمامه / ١٧٠ – ١٧١ .
(٦٨) .مدخل الى علم النفس الإجتماعي / ١٩.
(٦٩) شعر عامر بن الظرب العدواني / ١٩٠ .
(٧٠) ينظر : مدخل الى علم النفس الإجتماعي / ٢٣ .
(٧١) شعر همّام بن رياح بن يربوع التميمي / ٢٦٥.
(٧٢) مالك بن حريم الهمدانيّ / حياته وما تبقى من شعره / ١٧٣ .
(٧٣) شعر كلدة بن عبد بن مرارة بن سواءة الأسدي / ٢٧٩ .
(٧٤)ديوان الخنساء / ٤٧.
(٧٥) المصدر نفسه /١٤٦ – ١٤٧. الجَدَا : العطية .
(٧٦) مصدر الضبط والصحة النفسية وفق الإتجاه السلوكي المعرفي٦ / ٦ .
(٧٧)شرح ديوان لبيد بن ربيعة / ٣٢٧ . البسُ اقواماً : احتملهم واقبلهم . الشَّنَآن : البغضة.
(٧٨) ديوان شعر الحادرة / ٥٢، ٥٨ . آمن اموالنا : بقويّ مالنا واوثقه في نفوسنا. الإجرار : انْ يطعن الرجلُ الرجلَ ويدع الرمحَ فيه . ندّعي : نقول : يالفلان.المعرض : اللحم الذي لم يبلغ نُضجه .
(٧٩)شرح ديوان عنترة / ٥٥ .
(٨٠)ديوان طرفة بن العبد / ٩٩.نتلده :نجعله تالداًفي أولادنا ، أي مورثاً . ندّخره : نصونه .
(٨١) المخبل السعدي / حياته وما تبقى من شعره / ٧٢ .
(٨٢) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي / ١٩٤ .لأمنع : أي ما كنت لأمنع .
(٨٣)علم الإجتماع النظري / ١٧٩ – ١٨٠ .
(٨٤) ديوان طرفة بن العبد / ١٥٨ – ١٥٩ .

(٨٥) ديوان قيس بن الخطيم / ١٢٨ -١٢٩ . بَور: لاخير فيه . والبَور والبُور : الهالك . الألدّ : الشديد الخصومة .
(٨٦)علم الإجتماع النظري / ١٧.
(٨٧) ينظر : شواعر الجاهلية / دراسة نقدية / ٣٠٠.
(٨٨)شعرليلى العنبرية / ٣٠٠ .
(٨٩) ديوان حاتم الطائي / ٨١ .
(٩٠) مصدر الضبط والصحة النفسية وفق الإتجاه السلوكي ٦/ ٩.
(٩١) ديوان حاتم الطائي / ١٤٢ .
(٩٢): شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ / ٤٦ – ٤٧ .
(٩٣) كتاب الوحشيات / ٢٨ .
(٩٤) المرقش الأكبر – أخباره وشعره / ٨٨٧ .
(٩٥) شعر أحيحة بن الجلاح الأوسي / ٤٥٣ .
(٩٦) ينظر: مفهوم الأمن الإجتماعي في الفكر السوسيولوجي / ١٦ وينظر : نحو علم اجتماع عربي / ٢٥٥.
(٩٧) المصدر نفسه / ١٦.
(٩٨) كتاب الوحشيات/ ٢١٣ .
(٩٩) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى / ١٥٢ . على علّاته : على عسره ويسره .
(١٠٠)ديوان حاتم الطائي /٤٣
(١٠١) المصدر نفسه /١٣١.المعنى : يقولون هذا عجزه أتى . وهذا لجلادته أغنى .
(١٠٢) شعراء الأمكنة وأشعارهم في معجم البلدان لياقوت الحموي ١ / ١١٧ .
(١٠٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى / ٢١٢ ، وينظر : ص ٢١١- ٢١٢ .عظيمة مغرم : أي كلّ خصيلة عظيمة المغرم . لم يُليموا : لم يأتوا ما يلامون عليه.
(١٠٤) الضبط الإجتماعي / ٢٩.
(١٠٥) ديوان حسان بن ثابت ١ / ١٧٦.
(١٠٦) ديوان عروة بن الورد /٨٣ -٨٤ .اللقح : جمع لقوح ، هي الناقة الحلوب . الخلة : نبات حامض. صُرَّين : من التصرية ، والمعنى : أنّ الإبل التي تأكل الخلة أقلّ لبناً . البكارة : اولاد الناقة .الإفال : اولاد المخاض .الحوار : بالضمّ والكسر : ولد الناقة ساعة تضعه .
(١٠٧) شعراء الأمكنة وأشعارهم في معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٦.
(١٠٨) علم الإجتماع النظري / ١٨٠ .
(١٠٩) ديوان ابن مقبل / ٥٥ .
(١١٠) ديوان ذي الإصبع العدواني /٥٣ .
(١١١) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي / ٥٩ .
(١١٢) ديوان ذي الإصبع العدواني/ ٧٣ .
(١١٣)ديوان ابن مقبل / ١٢٧. الخنا : الرذيلة والفساد. الوفر : الرعاية .خلع العذار : اطلاق مقود المطية .اللسن : الجيد الكلام .الجوفاء : الواسعة الجوف .
(١١٤) شعر خداش بن زهير / ٤٥ .
(١١٥) شرح ديوان لبيد بن ربيعة /٣٢١ .
(١١٦) ديوان حاتم الطائيّ / ٣٢ .العُرف : الجود. وقيل : العُرْف : اسم ما تبذله وتسديه.
(١١٧) ديوان الحطيأة / ٥١ .

(١١٨)ديوان حاتم الطائي / ٥٦ .
(١١٩) الضبط الإجتماعي / ٧٣.
(١٢٠)ديوان حاتم الطائي / ٧٤ .
(١٢١) ديوان الحطيأة /٤٤ – ٤٩. مريتكم :طلبت ماعندكم .واصله من (مريت الناقة) وهو أنْ يمسح ضرعَها لتدرّ. الدَرَّة والدرُّ :اللبن . الإبساس : صوت تسكن به الناقة عند الحلب ، تقول: بُسّ بُسّ ، فلم يجيء مَرْيي اياكم بخير .الدّرة : اراد العطية والسبب والنائل . اعشاء : جمع عشاء، وهو عشاؤها ، يقال : ابل عاشية ، اذا كانت تعشّى .الحوز : السوق قليلاً قليلاً . التنساس : تفعال من النّس : وهو السوق .مستوعر :مكان وعر .الشاس : المكان المرتفع الغليظ .ذا فاقة : يعني الحطيأة نفسه.الهُون : الهوان .
(١٢٢) المصدر نفسه / ٦٠ .أعيبك : اهجوك . فاخر : له فخر.
(١٢٣)ديوان حاتم الطائي / ١٣٤ .أثار الشيء :أعاده مرّة بعد مرّة .
(١٢٤)المصدر نفسه / ٤١ .الميسرة : اليسر.الإقتار : قلة المال .
(١٢٥)الضبط الإجتماعي / ٧٧ .
(١٢٦) ديوان حاتم الطائي /٢٧
(١٢٧) المصدر نفسه / ٧٩
(١٢٨) (سورة ابراهيم الآية رقم ٧)
(١٢٩)ديوان الحطيأة / ٨٠ .الوجناء : يعني الناقة الغليظة .ضفورها : انساعها ؛ لأنّها قد قلقت من الضمر.
(١٣٠) المصدر نفسه / ٢٦٨
(١٣١) مفهوم الأمن الإجتماعي في الفكر السوسيولوجي /٢٢
(١٣٢) العقل الأخلاقي العربي /٥١١
(١٣٣) شعر حبيبة بنت عبد العزّى العوراء / ٢٤٣- ٢٤٤.الرقص : نوع من سير الإبل .الهدي :ما يهدى الى البيت . الهدي المقلّد : كانوا يقلدونه ويجعلون في عنقه لِحَاءالشجر او الصوف المفتول ليكون علامة لإهدائها .
(١٣٤) مالك بن حريم الهمدانيّ / حياته وما تبقى من شعره / ١٧٢ . العافي : الضيف .
(١٣٥) شرح ديوان لبيد بن ربيعة / ٣٢٤ – ٣٢٦ .الغضون : مكاسر الجلد في الجبين والكم والحديدوغير ذلك . الجنين : المدفون . والعرب تسمّي القبر : الجَنَن .
(١٣٦) علم الإجتماع النظري /٥٦ .
(١٣٧) الضبط الإجتماعي / ٤٧.
(١٣٨) المصدر نفسه / ٤٧.
(١٣٩) المرقش الأكبر - أخباره وشعره / ٨٧٧ .
(١٤٠) شعر زهير بن جناب الكلبي / ٤١٠ -٤١١ .
(١٤١) علم الإجتماعي النظري / ١٣ .

المصادر المراجع :

القرآن الكريم .
١.أبحاث في علم الإجتماع (نظريات ونقد) – الدكتور طلال عبدالمعطي مصطفى – منشورات دارهادي للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

٢.الأمن الإجتماعي – مقوماته – تقنياته – ارتباطه بالتربية المدنية – مصطفى العَوْجي – مؤسسة نوفل – الطبعة الأولى – بيروت لبنان – ١٩٨٣ .
٣.ديوان ابن مقبل – تحقيق عبدالرحمن المصطاوي- دار المعرفة للطباعة والنشروالتوزيع – الطبعة الأولى – بيروت – لبنان – ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
٤.ديوان الأسود بن يعفر- صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي – مطبعة الجمهورية – بغداد – ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
٥.ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي – تحقيق الدكتور عزة حسن – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
٦.ديوان حاتم الطائي – شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي – قدم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور حنّا نصر الحتّي – الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان -١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ .
٧.ديوان حسان بن ثابت – حققه وعلق عليه الدكتور وليد عرفات – سلسة جب التذكارية .
٨.ديوان الحطيأة – برواية وشرح ابن السكيت (١٨٦- ٢٤٦هـ) – تحقيق الدكتور نعمان محمد امين طه – مطبعة المدني – المؤسسة السعودية بمصر – الناشر : مكتبة الخاجي بالقاهرة – الطبعة الأولى –القاهرة – ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
٩.ديوان الخنساء – تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد السُّلمية (ت٢٤هـ) – شرحه : ثعلب ابو العباس ،أحمد بن يحيى بن سيّار الشيباني النحوي(ت ٢٩١هـ)- حققه الدكتور أنور أبو سويلم – دار عمّار – نشر بدعم من جامعة مؤتة .
١٠.ديوان دريد بن الصمة الجشمي – جمع تحقيق وشرح محمد خير البقاعي – دار قتيبة – دمشق -١٩٨١م .
١١.ديوان ذي الإصْبَعِ العَدْوانِّي – جمعه : عبدالوهاب محمد علي العَدْوانِّي ومحمد نائف الدليمي وخط اشعاره يوسف ذنون – مطبعة الجمهور – الموصل -١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
١٢.ديوان شعر الحادرة – املاء ابي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي عن الأصمعي - حققه وعلق عليه الدكتور ناصر الدين الأسد – دار صادر – بيروت – ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
١٣.ديوان طرفة بن العبد – ضمن كتاب : الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد – تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته – دكتور علي الجندي – دار الفكر العربي (دون تاريخ).
١٤.ديوان عروة بن الورد – شرح ابن السَّكِّيت يعقوب بن اسحاق المتوفَّى ٢٤٤هـ - حققه وأشرف على طبعه ووضع فهارسه عبدالمعين الملوحي – مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي -١٩٦٦م.
١٥.ديوان علقمة الفحل – بشرح الأعلم الشنتمري – حققه: لطفي الصقال / درية الخطيب – راجعه : الدكتور فخرالدين قباوة – دار الكتاب العربي بحلب – مطبعة الأصيل – الطبعة الأولى – حلب ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
١٦.ديوان قيس بن الخطيم – تحقيق الدكتور ناصرالدين الأسد – دار صادر– الطبعة الثانية – بيروت – ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
١٧.ديوان النابغة الذبياني بتمامه – صنعة ابن السِّكِّيت – تحقيق الدكتور شكري فيصل – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – تاريخ المقدمة ١٩٦٨م .
١٨.شرح ديوان زهير بن أبي سلمى – صنعة الإمام أبي العباس ، أحمد بن يحيىبن زيد الشيباني ثعلب – نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م – الناشر الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة -١٣٨٤هـ -١٩٦٤م

١٩.شرح ديوان عنترة – للخطيب التبريزي –قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : مجيد طرّاد – دار الكتاب العربي –الطبعة الرابعة – بيروت -١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
٢٠.شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري – حققه وقدم له : الدكتوراحسان عباس – سلسة التراث العربي – ٨ – الكويت – ١٩٦٢م.
٢١.شعر أُحيحة بن الجلاح الأوسي- ضمن كتاب : الشعراء الجاهليون الأوائل – الدكتورعادل الفريحات – دار المشرق – الطبعة الثانية – بيروت – ٢٠٠٨م.
٢٢.شعر الأشعث بن عبدالحجر بن عوف بن الأحوص – ضمن كتاب : شعراء الأمكنة وأشعارهم في معجم البلدان لياقوت الحموي – بقلم جورج خليل مارون – أشرف عليه وراجعه الدكتور ياسين الأيوبي – المطبعة العصرية – الطبعة الأولى – صيدا – بيروت -١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٣.شعر أم الصريح الكندية – ضمن كتاب : شواعر الجاهلية - دراسة نقدية - رغداء ماريني – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – ودار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
٢٤.شعر أمّ الضحاك الضبابية - ضمن كتاب : شعراء الأمكنة وأشعارهم في معجم البلدان لياقوت الحموي – بقلم جورج خليل مارون – أشرف عليه وراجعه الدكتور ياسين الأيوبي – المطبعة العصرية – الطبعة الأولى – صيدا – بيروت -١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٥.شعر حبيبة بنت عبد العزى العوراء –– ضمن كتاب : شواعر الجاهلية – دراسة نقدية – رغداء ماريني – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – ودار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
٢٦.شعر خداش بن زهير – ضمن كتاب : أشعار العامريين الجاهليين – جمعها ووثقها وقدم لها الدكتور عبدالكريم ابراهيم يعقوب – دار الحوار – الطبعة الأولى – اللاذقية – سورية – ١٩٨٢م .
٢٧.شعر زهير بن جناب الكلبي - ضمن كتاب : الشعراء الجاهليون الأوائل – الدكتورعادل الفريحات – دار المشرق – الطبعة الثانية – بيروت – ٢٠٠٨م.
٢٨.شعر عامر بن الظرب العدواني – ضمن كتاب : الشعراء الجاهليون الأوائل – الدكتورعادل الفريحات – دار المشرق – الطبعة الثانية – بيروت – ٢٠٠٨م.
٢٩.شعر العوراءبنت سبيع - ضمن كتاب : شواعر الجاهلية – دراسة نقدية – رغداء ماريني – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – ودار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
٣٠.شعر الفارعة بنت شداد –– ضمن كتاب : شواعر الجاهلية – دراسة نقدية – رغداء ماريني – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – ودار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
٣١.شعر قيس عاصم المنقري – صنعة الأستاذ هاشم طه شلاش – مجلة البلاغ – العدد (١٤) السنة ١٩٧٥م.
٣٢.شعر كلدة بن عبد بن مُرارة بن سُواءَة الأسدي - ضمن كتاب : الشعراء الجاهليون الأوائل – الدكتورعادل الفريحات – دار المشرق – الطبعة الثانية – بيروت – ٢٠٠٨م.
٣٣.شعر ليلى العنبرية – ضمن كتاب : شواعر الجاهلية – دراسة نقدية – رغداء ماريني – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – ودار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

٣٤.شعرنَهْشَل بن حَرِّيّ – ضمن كتاب : عشرة شعراء مقلّون – صنعة الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن – مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر – الموصل -١٩٩١م.
٣٥.شعر همام بن رياح بن يربوع التميمي- ضمن كتاب : الشعراء الجاهليون الأوائل – الدكتورعادل الفريحات – دار المشرق – الطبعة الثانية – بيروت – ٢٠٠٨م.
٣٦.شعر هند بنت الخس –– ضمن كتاب : – شواعر الجاهلية – دراسة نقدية - رغداء ماريني – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – ودار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
٣٧.الضبط الإجتماعي – الأستاذ الدكتور معن خليل العمر – دار الشروق للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – عمان – الأردن -٢٠٠٦م .
٣٨.العقل الأخلاقي العربي – دراسة تحليلية لنظم القيم في الثقافة العربية – الدكتور محمد عابد الجابري – مركز دراسات الوحدة العربية – الطبعة الأولى – بيروت -٢٠٠١م .
٣٩. علم الإجتماع النظري – تأليف البروفسور كارل منهايم – ترجمة الأستاذ الدكتور احسان محمد الحسن – دار الكتب للطباعة والنشر – بغداد - ١٩٩٣م .
٤٠.كتاب الوحشيات – وهو الحماسة الصغرى لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي – علق عليه وحققه : عبدالعزيز الميمني الراجكوتي – وزاد في حواشيه : محمود محمد شاكر – دار المعارف – القاهرة -١٩٦٣م.
٤١.مالك بن حريم الهمداني – حياته وما تبقى من شعره – صنعة الدكتور مهدي عبيد جاسم – مجلة المورد – المجلد الثامن عشر – العدد الثالث – مطابع دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٤٢.المخبل السعدي – حياته وما تبقى من شعره – ضمن كتاب : عشرة شعراء مقلّون – صنعة الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن – مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر – الموصل - ١٩٩١م.
٤٣.مدخل الى علم النفس الإجتماعي – روبرت مكلفين وتشاردغروس – تحرير ومراجعة الدكتور ياسين حداد – ترجمة الدكتورة ياسمين حداد والدكتور موفق الحمداني والدكتور فارس حلمي – دار وائل للنشر – الطبعة الأولى – عمان – الأردن – ٢٠٠٢م .
٤٤.المرقش الأكبر – أخباره وشعره – صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي – مجلة العرب – الجزء (٦) – السنة الرابعة – الرياض – ١٩٧٠م.
٤٥. مصدر الضبط والصحة النفسية وفق الإتجاه السلوكي المعرفي – دراسة ميدانية - اعداد : أ. د.بشير معمرية – ضمن سلسلة كتاب : بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس (الجزء السادس) – الناشر : المكتبة العصرية للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى - مصر – ٢٠٠٩م.
٤٦.مفهوم الأمن الإجتماعي في الفكر السوسيولوجي – الدكتور كامل جاسم المراياتي - بحث - ضمن كتاب : الأمن الإجتماعي – ندوة فكرية – قسم الدراسات الإجتماعية – بيت الحكمة – سلسلة المائة الحرة (٧) – دار الحرية للطباعة – بغداد -١٩٩٧م .
٤٧.نحو علم اجتماع عربي – الدكتور معن خليل عمر – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٨٤م.
٤٨.نظريات علم الجريمة – الدكتور عايد عواد الوريكات – دار الشروق للنشر والتوزيع – الطبعة الثانية – عمان – ٢٠٠٧م .

Worth in Pre-Islamic Paganism
(Social Regulator and the Value of Bounty)

Prof. Dr. Tawfeeq Ibrahim Salih
Arabic Language Dept.,
College of Education / Kirkuk University

The paper attempts along within its pages to study the value of bounty according to the social view which was surrounded with a tribal society. Bounty has not been an affective operator in the value of life alone, but also in human beings manners because of interlacement within human beings relationships and its complexity.

The paper's findings explain that the value of bounty played the role of social regulator through which the gracious achieved a lot of aims. Some of gracious' aims stuck to his social and political situations, while the others to his humanistic nature that he believes in. Through bounty, the gracious was distinguished to the others by his individual abilities in dealing with the others and spiritual contacting to others. As a result of that, the others gave him their faith and the head of the leadership. He has been above the others in doing what the others can't.

The pagan has translated the value of bounty mannerly and by devoting money. The pagan has insisted on this matter in order to respect the value of society. He was chivalry to the others. The gracious was used to do bounty and continued on that inspite of incapability of separating between his human nature and the value. Wherever the nature of bounty is existed the value estimated the spirit and the manner. The pagan learns to enhance bounty without absorbing it.

The pagan used to do bounty just to obtain the satisfaction of the people and society. Such satisfaction has been socially represented through his thanks and estimation to God which differs from the

others. Thus, the pagan achieved what does he want through bounty. Bounty provided the tribal society with enough social stability.